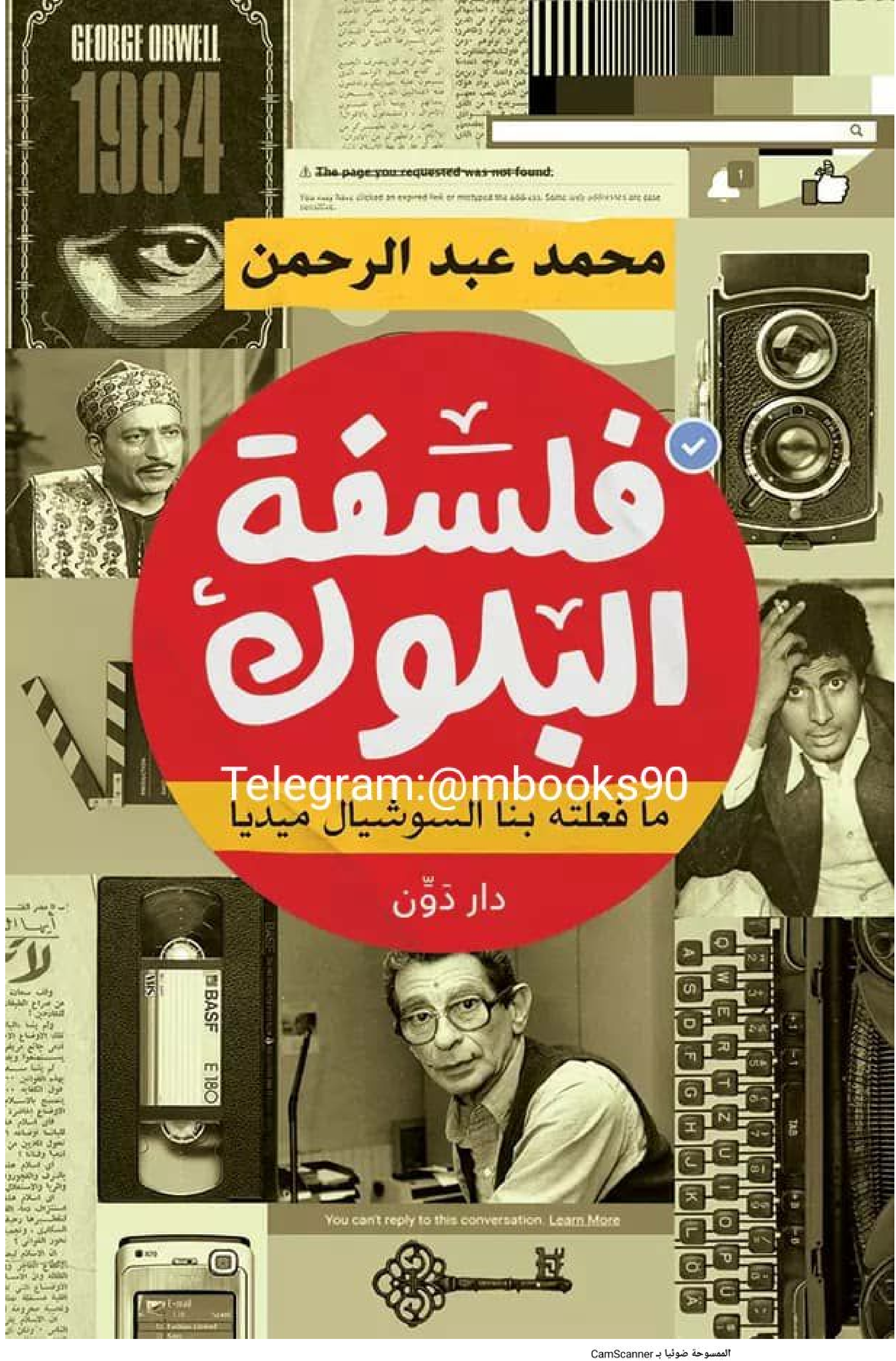

GEORGE ORWELL
1984
The page you requested was not found.
محمد عبد الرحمن
فلسفة البلوك
Telegram:@mbooks90
ما فعلته بنا السوشيال ميديا
دار دَوّن
BASF
You can't reply to this conversation. Learn More

إهداء

إلى مارك زوكربيرج..

جوائز نوبل لم تغفِر لصاحبها اختراعَ الديناميت

المؤلف

قبل أن تقرأ

النزول إلى ما لا نهاية



أصبحَ لي حسابٌ على فيسٍ بوك في الخامسِ عشر من أغسطس عام ٢٠٠٨، أي قبل ١٢ عامًا وستة أشهر تقريبًا من تاريخ كتابة هذه المقدمة، كان الفيس بوك حديثَ الناس قبل هذا التاريخ، لكنني كنت أمتنع، وأقول لكل من يسألني «أنت ليه مش على الفيس بوك؟» بأنه يكفي الوقت الذي استغرقه على «هوت ميل ماسينجر» الذي كان تطبيق التراسل الأكثر انتشارًا في ذلك الوقت، نتواصل من خلاله مع الكثيرين خصوصًا فيما يتعلق بشؤون العمل، أي أنني اعتبرت الفيس بوك وقتها برنامج دردشة مثله مثل «هوت ميل ماسينجر»، وعندما التحقت بالفيس بوك في التاريخ المذكور أعلاه، أصبح عندي من أول لحظة ٦٠ صديقًا، كانوا قد أرسلوا طلبات

مسبقة كما يحدث مع كل تطبيق جديد عندما يشجعك على جذب أصدقائك إما عبر قائمة هاتفك أو بريدك الإلكتروني أو تطبيق آخر يسمح بهذا التداخل، انبهرت طبعًا بهذا العدد من الأصدقاء انبهارًا عانى منه كل من لم ينتبه إلى أول خدعة يورطنا فيها الفيس بوك؛ وهو التعريف الذي وضعه هو لا نحن لمفردة «صديق».

بدأ العدد يتزايد، عرَفتُ طريق الجروبات واستخدمها في عملي الصحفي، وقتها لم تكن الصفحات قد ظهرت، لم يكن لدي أصلًا هاتف يسمح بالتصوير والدخول على الفيس بوك من خلاله، فكان النشاط محدودًا، ربما أقل من أيام «هوت ميل ماسينجر» الذي لا أتذكر تحديدًا متى هجرته. كل شيء اختلف قبل ثورة يناير بعدة شهور، لأول مرة ترى أعيننا صفحات وجروبات ومنشورات تعارض النظام القائم علنًا وبدون قلق، ثم جاءت الثورة وسلمت الصحف والشاشات نفسها طوعًا أو كرهًا - لا فرق- لمارك زوكربيرج وفريقه، باتوا تابعين لما يحدث على التايم لاين، ووجدتُ نفسي وغيري من أبناء جيلي تظهر منشوراتنا على الشاشات وفي الصحف التي نتابع ماذا يكتب الصحفيون، أي أنَّ سطرين أكتبهما على حسابي لمئات الأشخاص، يمكن أن يصلوا لعددٍ أكبر لو نالوا إعجاب مُعِدٍّ في برنامج أو صحفي في جريدة.

حلوة اللعبة بالتأكيد، زاد التورط مع اشتعال الأوضاع السياسية وقدرة الفيس بوك في البداية على التغيير، ثم حتى بعدما بدأت الدولة ترفض سياسة «ليّ الذراع» لم يتوقف مناصرو الفيس بوك بسهولة،

تعاملوا مع القصة بدماغ عنيدة، وتفرعت من الصورة المرتبكة مئات الصور الأخرى، وجدنا لصوص المنشورات أبناء قبيلة «منقول»، عرفنا أن الفنان الذي نكلمه على صفحته يوميًّا لا يعرف أصلًا شكل الفيس بوك بل أن نصابًا أنشأ صفحة ليتحدث باسمه، قبل أن يبيعها له شخصيًّا بعد ذلك، وجدنا أصدقاءنا يتغيرون للأسوأ غالبًا، بتنا نهرب من أقاربنا الذين يخالفوننا الرأي السياسي، دخل لنا الغرباء عبر صندوق الـ others يشتمون الرجال ويتحرشون بالنساء.

وجدنا مَن يعاتب لأننا لا نهتم بمنشوراته، ومَن يعلِّق فقط لمن تربطهم به مصلحة، بات «البلوك» هي الكلمة الأكثر انتشارًا بين الناس، حتى إن إحدى المذيعات حققت شهرة كبيرة لأنها كرَّرتها في فيديو ثلاث مرات متتالية، كل يوم تريند جديد، وأحيانًا أكثر من تريند في اليوم، عشنا كلَّ هذا وكأنها قضية محلية، فيما العالم كله يشكو، حتى شعوب الذين اخترعوا تلك المنصات، حضَّروا العفريت ولم يعرفوا كيفية التخلص منه، ولأول مرة نجد رئيس أكبر دولة في العالم يشكو من الأخبار الكاذبة التي تطلقها عليه مواقع التواصل الاجتماعي، ثم يحاول غلقها ويهددها، لتنتصر عليه في النهاية وتغلق حساباته على مواقع التواصل الاجتماعي، أي أن دونالد ترامب نفسه في نهاية الأمر بات هو الآخر «محظورًا» على تلك المواقع، «اتعمل له بلوك» بالمصطلح المصري.

لكن مصطلحات أهم ظهرت، منها الـFomo وهو اختصار لـ Fear of missing out أي إدمان الدخول على مواقع التواصل

الاجتماعي خوفًا من أي يفوتك شيء، ربما فسر هذا المصطلح التصاقنا بهذه المواقع من زاوية خبرية، ترجع سلوكيات الإنسان فقط لحبه المرضي في المعرفة وفضوله لمتابعة كل شيء، لكنك لو أقسمت لكل سكان الأرض أن لا شيء سيحدث لمدة ست ساعات مثلًا هل نثق في أنهم لن يتصفحوا حساباتهم على المنصات المختلفة، أعتقد أن الإجابة هي لا، لأن الأمر تطوَّر من مجرد إدمان الموبايل والألعاب أو الخوف من فقدان أي خبر جديد، إلى إدمان النزول للأسفل بحثًا عن لا شيء، وهي ترجمة تخصني أنا لتعبير جديد هو Doomscrolling أو «التمرير بلا توقُّف»، ففي حين لا يسهل جهاز الكمبيوتر الشخصي عملية النزول إلى أسفل باستخدام الماوس لمسافات طويلة، يمكن لمن يستخدم الأجهزة المحمولة التصفح إلى ما لا نهاية بإصبعٍ وحيدٍ، بحثًا عن أي جديدٍ، غارقًا في أخبار وتفاصيل معظمها سلبية يتحكم صناع المنصة في وصولها إلى المتصفحين من خلال «خوارزميات» باتت تحدد ماذا نرى ومع ماذا نتفاعل، فيما المستخدم مسلوب الإرادة يظن بأنه بالنزول إلى أسفل سيجد ما يسعده ويكتشف ما يجهله، فيما هو في الحقيقة يقلل فرص العودة من أعماق تلك المنصات التي يذهب إليها الكثيرون حاليًا في رحلة بلا عودة.

حدثَ كلُّ ما سبق لأننا دخلنا لتلك المنصات دون استعداد حقيقي، ومعظم ما تعلَّمناه بالتجربة لم نطبقه لأسباب شتى، ربما تؤكد الدراسات والأبحاث الكثيرَ من هذه الحقائق، لكنني اخترت في هذا

الكتاب أن أوثق أفكارًا واتجاهات رصدتها بعد تأمُّل طويل وتجارب عديدة سمحت لي بها مهنتي العظيمة، الصحافة، التي من المفترض أن تجعل صاحبها يتعامل مع كل شيء على أنه موضوع يجب أن يخرج منه بجديد يقدمه للناس.

الجديد الذي أقدِّمه لقارئ هذا الكتاب هو محاولة لأن يستوعب من خلال الفصول التالية ما يجب أن يفهمه وهو يتعامل مع هذه المواقع، سيجد القارئ الكريم تفسيرًا لسلوكيات كثيرة تخرج من النشطاء على تلك المنصات، سيحصل على فلسفة أتمناه قويمة لمواقف وظواهر أثارت دهشتنا في البداية وكان لا بُدَّ من سبر أغوارها حتى نأخذ من تلك المنصات أفضل ما فيها دون أن نصاب بأضرارٍ جسيمة.

عندما تصل لنهاية هذا الكتاب، ستدرك أنه ليس دعوةً للهروب من زمن البلوك بمخاصمة تلك المنصات، وإنما محاولة لعيش هذا الزمن بناءً على قواعدنا الفردية التي نضعها بأنفسنا ولا يجبرنا عليها أحدٌ، لا صانع المنصة الذي حوّلنا إلى مصدر للربح، ولا أصدقاء وزملاء وجيران وأقارب ونجوم وسياسيون باتوا يراقبون كل ما نفعل ويجعلوننا ليل نهار ممسكين بالهاتف المحمول واضعين إصبعًا على شاشة ننزل من خلالها إلى جُبّ بلا قاع.

في نهاية البداية، الشكر موصول لزوجتي العزيزة التي شجعتني كعادتها على استكمال هذا المشروع، والأصدقاء الناقد إسلام وهبان، والشاعر أحمد شبكة، والباحث طاهر عبد الرحمن، لدعمهم وتشجيعهم من

أجل الاستمرار ثم النشر، وكل مَن نصحني بتغيير وتعديل حين سمع مِنِّي فكرة الكتاب، بقي القول أنني ممتنٌ إلى ما لا نهاية للزميلة الباحثة والصحفية النابهة إيمان مندور التي أعطت هذا الكتاب بسخاء من أجل ترتيبه وتنظيمه ومراجعته، فلها مني جزيل الثناء.

حدائق الأهرام - الجيزة

١٩ فبراير ٢٠٢١

فلسفة البلوك

في عام ١٩٥٨، أطلق كاتب إنجليزي مقيم في أمريكا تحذيرًا من أن القرن اللاحق، يقصد به القرن الذي نعيشه الآن، سيشهد ذروة ممارسات «قوى ضخمة متجردة» وهي القوى التي تسيطر على التكنولوجيا الحديثة، والتي رآها دومًا تهدِّد حرية الفرد. كان ذلك في كتاب اسمه «عالم جديد رائع من منظور جديد»، والنصف الأول من الاسم هو عنوان روايته الأشهر «عالم جديد رائع» التي أصدرها عام ١٩٣٢، والتي تُصنَّف كواحدة من أبرز روايات الديستوبيا في أدب القرن العشرين، و«الديستوبيا» نوعٌ أدبي يعتمد على تخيُّل المبدع لحياة الناس في ظل قوانين فاسدة وقواعد تنتهك خصوصياتهم وتجبرهم على أن يكونوا جميعًا نُسخًا من بعضهم البعض.

الكاتب المقصود في الفقرة أعلاه هو ألدوس هكسلي، الإنجليزي الذي انتقل للعيش في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٧ وتوفي على أرضها مطلع ستينيات القرن الفائت، لكنه ومنذ روايته المذكورة قبل قليل، يحذِّر دومًا من أن التقدُّم في العلم لن يكون في مصلحة الإنسان، طالما لا ضامن لعدم استخدامه في السيطرة على العقول وتحديد مصائر الناس طبقًا لعمليات ميكانيكية بعيدًا عن العواطف والمشاعر والتميز، الذي هو من المفترض يجعل لكل روح إنسانية بصمتها الخاصة.

هسكلي كتب كل ذلك وتوقعه قبل عقود من ظهور مواقع

التواصل الاجتماعي، كان فقط يستشرف الحياة في ظِل بوادر اختراع التلفزيون فلم يكن الحديث عن الحاسب الآلي قد ظهر بعد. وإذا تركناه وذهبنا لكاتب إنجليزي آخر هو جورج أورويل، الذي تأثر كثيرًا بهكسلي، سنراه في روايته ذائعة الصيت «١٩٨٤»، وقد جعل الشاشات تراقب الناس في بيوتهم، وكان هذا حتى قبل انتشار أجهزة التلفزيون في كل البيوت، كون الرواية مكتوبة عام ١٩٤٩.

إذا تأملنا كل ما سبق، يمكن القول إن الأدب العالمي توقَّع ما نعيشه منذ مطلع القرن الحادي والعشرين، والذي بدأت إرهاصاته بظهور الإنترنت نهاية العقد التاسع من القرن الماضي، غير أن ما أضافه الواقع على خيال الأدباء هو أن الناس الآن باتت تسلِّم نفسها للمراقبة طوعًا، دون الحاجة لأن تلتقط الشاشات ما يفعلون رغمًا عنهم. بطل رواية «١٩٨٤» كان يجتهد مع حبيبته طوال الأحداث للهروب من الرقيب، لكن أبطال هذا العصر، نفس الناس العاديين كما بطل رواية أورويل، يذهبون بأنفسهم لمن يراقبهم، ولا يميزون بين ما يجب أن ينشروه عن حياتهم، وما يلزم الاحتفاظ به داخل ذواتهم، أو في ذاكرة الموثوقين فيهم وحسب.

إذا كانت الفلسفة هي حب الحكمة، وإذا كان التفكير الفلسفي من المفترض أن يقود الناس لحياة أفضل، فإن فلسفة سلبية أخرى فرضها الجموح نحو استخدام التكنولوجيا الحديثة، عزلت الفرد عن محيطه، وجعلت قواعد بغيضة تتحكم في جُل تصرفاتنا، ولا ينجو منها إلا مَن سيطر على عقله وأصابعه وهو يستخدم تلك المواقع أو منحه الله القدرة

على مقاطعتها من الأساس.

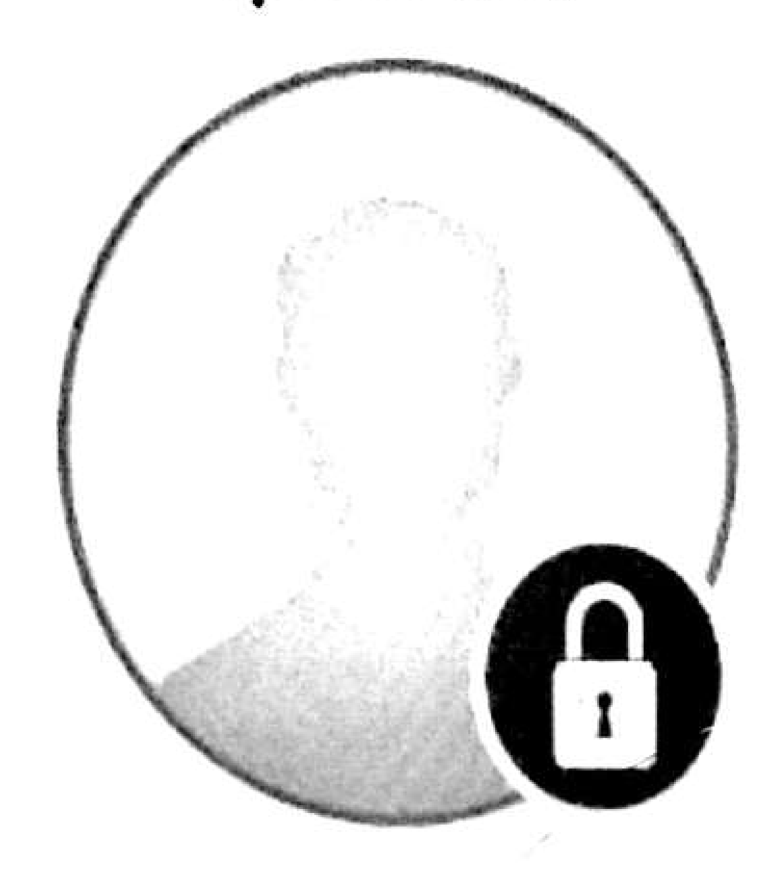
فلسفة تقوم على أن المهم كيف يراني الناس، لا كيف أرى نفسي، و«البلوك» هو السلاح الذي يمكن استخدامه في أي لحظة من أجل الدفاع عن النفس، غير أن «البلوك» المقصود هنا ليس فقط قيام أحدهم بحظر الآخر بسبب تبادل للشتائم أو تناقض في وجهات النظر، ربما يكون «المحظور» في هذه الحالة يستحق، لكن هناك مفهومًا أوسع لـ «البلوك»، إذا عدنا إلى المعنى الأصلي لكلمة «حظر» حيث فرضت حياتنا في ظِل تلك المنصات علينا أنواعًا عديدة من المحظورات، ربما بعضها أكثر انتشارًا من «حظر صاحب الرأي المخالف»، منها على سبيل المثال لا الحصر، حظر التعبير عن الرأي إذا كان يخالف آراء مديرينك المتابعين لك، حظر الانتظار حتى تكوين الرأي السديد، فنرى الكل يحكم على الكتب من أغلفتها والمسلسلات من إعلاناتها، والسياسيين من لافتاتهم الترويجية، حظر التفرقة بين الأشخاص والمواقف، فطالما أنا ضد الشخص فمحظورٌ عليَّ أن أتفق معه في أي موقف لاحق، ولو فعلتها فأتضامن صمتًا، أو سأعلنها محرجًا وبتشديدٍ على أنني موقفي استثنائي ورأيي الأساسي كما هو لم يتغير.

نحن أيضًا محظورون من أن نقول رأينا الحقيقي في مواقف البعض، طالما كانوا ذا سُلطة أو سريعي الغضب، أو حساسين زيادة عن اللزوم، فنعلّق وندعم أناسًا نعلم يقينا أنهم كاذبون أو مخادعون أو يتعرضون لأزمات نفسية ويكتبون عكس ما يشعرون، فقط من

أجل دعم كاذب نشارك في ضخه عبر صفحاتهم لأنه محظور علينا حتى أن نلتزم الصمت، فهناك من يجلس ويراقب من علّق، ومن صمتَ، ويصدر الأحكام دون التفكير حتى في الاستماع لدفاع المذنبين.

«البلوك» إذًا لم يعد قاصرًا على حظر س ل ص لأن الأخير تجاوَز في حق الأول، لكنه «البلوكات» تكاثرت علينا، وبتنا نحن المحظورين من فعل الكثير، فقط لأن القواعد التي فرضتها منصات التواصل الاجتماعي تفرض ذلك، وتتحكم فينا ليس كما تتحكم الحكومات الوارد تغييرها، والسياسيون الجائز انتخاب غيرهم، بل هو تحكم من «قوى ضخمة مجردة» لا يمكن الفكاك منها إلا بإرادة فردية عفية قابلة للصمود كما نصحنا ألدوس هكسلي قبل عقود.

جمال المكتئب



محطات عديدة مرَّ بها أبطال فيلم «فيلم ثقافي» إنتاج عام ٢٠٠٠ لمشاهدة الشريط الذي ظنّوه فيلمًا فاضحًا، وبالغَ بعضهم بالقول إنه من بطولة سلمى حايك، قبل أن يُصدَموا في المشهد الأخير بأن أحدهم سجَّل على الشريط جلسات لمجلس الشعب -كما كان يسمى في تلك الحقبة من تاريخ مصر-.

من بين تلك المحطات، كان منزل «جمال المكتئب»، صاحبهم المصاب باكتئاب مُزمِن فتحوَّل المرض إلى لقب، في المناقشة التي تسبق الذهاب إليه، انقسمت الآراء ما بين أنه معقَّد ولن يرحب بهم وبات زاهدًا في الحياة، وبين أنه عندما يشاهد الفيلم معهم سيعود مرة أخرى للاندماج في المجتمع، ربما يكون المكتئب هو الوحيد الذي استدعى الذهاب إليه انطلاق هذه المناقشة، عكس باقي محطات

الثُّلاثي؛ أحمد رزق وأحمد عيد وفتحي عبد الوهاب في الفيلم الذي تحول إلى أحد كلاسيكات تلك الفترة.

طبيعي أن يحدث النقاش، لأن الشخص المصاب بالاكتئاب من الصعب التنبؤ بردة فعله، حتى لو كان الأمر متعلقًا بشريط جنسي معظم الشباب كانوا يلهثون من أجله في تلك الفترة، عصر ما قبل انتشار الإنترنت، وبالفعل لم يخلف جمال المكتئب الظنون، فرغم أنه لديه كل الإمكانيات التي توفرها أسرة ميسورة الحال لابنها المصاب بالملل والزهق والراغب في العزلة؛ إمكانات من نوعية غرفة منفصلة، تلفزيون، فيديو... لكنه رفض، وطردهم واعتبرهم - كأي مصاب باكتئاب عميق- عبيدًا لشهواتهم ومتاع الدنيا الزائل.

كل ما جرى في الفيلم لم يكن ليحدث لو أن الإنترنت كان موجودًا بكثرة وقت تنفيذ الشريط، فلن يصدق أحد أن هؤلاء الشباب اضطروا للقيام بكلِّ هذه المغامرات لمشاهدة فيلم جنسي سموه زورًا «فيلم ثقافي».

لكن ما يهمني هنا ليس قصة الفيلم وكونها تدور قبل مرحلة الإنترنت، وإنما شخصية «جمال المكتئب»، تخيَّل لو أن هذا الشاب وهو جالس في غرفته، دخل عليه صديق أو قريب وقال له «هتفضل قافل على نفسك كده كتير»، فردَّ جمال بأنه لا يستطيع الخروج للشارع ولا يحب الاختلاط بالناس، لا يريد وظيفة، لا يبحث عن الحب الهادف لتكوين أسرة، ليس له طموح.

يقترح الزائر على صاحب الغرفة المنعزلة، أن يجرب شيئًا جديدًا للتسلية، يقول له أن هناك موقعًا جديدًا اسمه فيس بوك يمكن أن ينشئ صفحة عليه، وقد لا يحتاج لاستخدام اسمه الحقيقي وصورته، وتدريجيًّا سيعرف من خلاله ما يدور في العالم الخارجي الذي يخشى الذهاب إليه على قدميه.

هذه أول كذبة بالمناسبة تقال حول فيس بوك وغيره من مواقع التواصل الاجتماعي، فيس بوك لا يقدِّم لك العالم الحقيقي، أسمعك تقول «أيوه ما هو عالم افتراضي»، هو أيضًا في رأيي أو حسب الفلسفة التي وصلت لها ليس عالمًا افتراضيًّا، هو مزيج بين كل ذلك، والتعامل معه يتطلب إلى فلاتر من كل الأنواع، فلتر يصفي لك الأخبار والمعلومات التي تأتي من العالم الحقيقي، وفلتر لكشف مدى مصداقية هؤلاء الذين لا تعرفهم إلا افتراضيًّا، موضوع طويل ومعقد ويحتاج إلى تحديث دائم في المعلومات وكيفية كشف الخدع الجديدة.

دعنا منه، ولنعود لجمال، لا أظنك تتخيل فعلًا ماذا سيحدث لو أن المكتئب أطلق حسابًا على فيس بوك، لست بحاجة لذلك، لأن معظم الذين يعانون مما يمر به جمال المكتئب موجودون فعلًا، دون الحاجة لأن تستدعي صورة الفنان شريف صبحي الذي أدى الشخصية باقتدار، صورته وهو يجلس أمام كمبيوتر المنزل ويقضي ساعات متتالية أمام الموقع الأزرق وحسب، فلو بحثت في قائمة أصدقائك أيًّا كان عددهم على فيس بوك، سواء كانوا خمسة آلاف

-الحد الأقصى- أو حتى مائة، ستجد العديد من «جمال المكتئب» من بينهم، بلاش، لو تسليت في قراءة تعليقات مَن لا تعرفهم وليسوا أصدقاءك على فيس بوك، تعليقاتهم على منشورات الآخرين سواء كان الآخرون أشخاصًا معروفين أو صفحات لصحف وقنوات ومشاهير، ستجد عددًا لا يحصى من «جمال المكتئب» بين التعليقات.

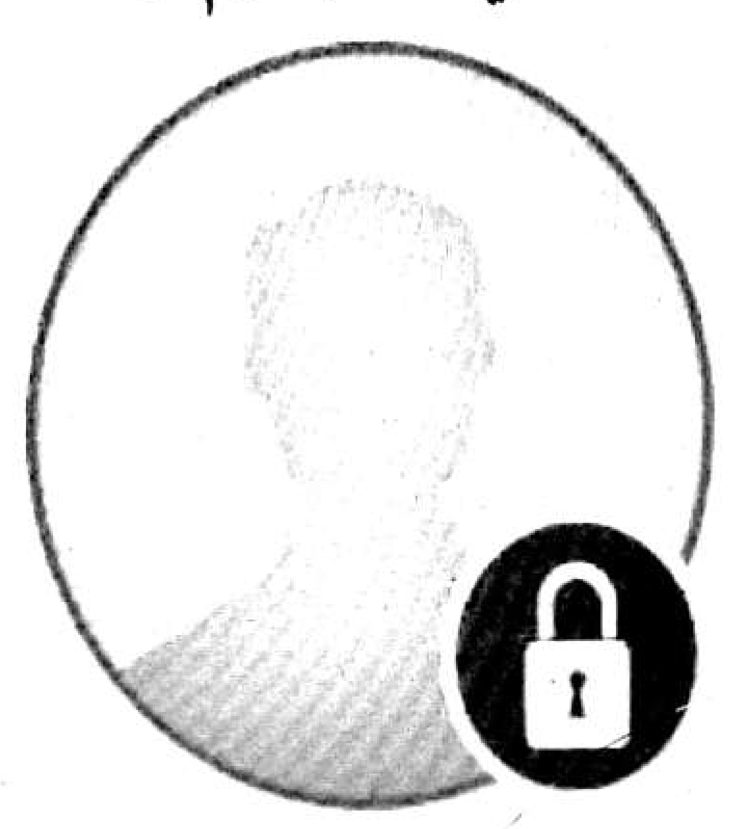
ما غاب عنَّا ونحن نتعرف على الموقع الأزرق وغيره مما أسموه مواقع التواصل الاجتماعي، أنَّ مَن يدخلون عليه بشر مثلنا، متنوعون في الظروف، لكلٍّ منهم حالته، وأن مَن تستطيع أن تتجنبه لأنه لا يشبهك في مكان العمل أو داخل قاعات الدراسة، أسقطَ الفيس بوك الحدود التي كانت بينكم عبر ساحته، وبات سهلًا عليه الوصول إليك.

أسمع أحدهم يقول وهو يقرأ: «ولماذا إذًا اخترعوا البلوك؟»، أنا هنا لا أتحدث عن هؤلاء المتجاوزين الذين يسبُّون ويشتمون ويسرقون الأفكار، فتضطر لحظرهم، جمال المكتئب في الفيلم وعلى الفيس بوك، شخصٌ غاية في الأدب، بالعكس ستجده يدافع عن الأخلاق الحميدة، ويتكلم بلغة راقية، لكنَّ خرابًا كبيرًا يُقيم بداخله، يجعله يصطاد أغرب الأفكار، يعلِّق على أتفه الأحداث، ينفر من الناجحين، يتوسل «الطبطبة»، يحقد على المتفردين، يزعم أنه لا شيء جيد سيحدث، سنظل هكذا في حيرة وقلق وعدم استقرار لأن مزاجه لا يريد حياة أخرى خارج هذا الإطار، ولأننا بتنا نتأثر ببعضنا البعض عبر «التايم لاين» فدون أن تدري ستجد نفسك أولًا تشعر بانجذاب لآراء وصياغات مختلفة يكتبها أشقاء جمال في الاكتئاب، ثم تفاجأ

لاحقًا لو أنك تركز وتمنحه هو مزيدًا من الوقت يوميًا، بأن بعض الآراء تتقلب، ثم تجده يشكو كثيرًا، ويسخر طويلًا، ثم يحمد الله على ما به من نعم، وبعدها بدقائق يحنق لأنه يفتقد ما يوصله لأحلامه، التي لو طلبت منه كتابتها في قائمة لتساعده على الوصول إليها ستجده غير راضٍ بأي أحلام يمكن أن يحققها فلن يدوِّن لك شيئًا ويشكر على عرضك النبيل، وعندما تنصرف عنه، تتوقف عن التفاعل، سيكتب فيك المزيد من منشورات الذم دون أن يذكر اسمك، بل لعلك ستبحث في ذهنك عمَّن يقصد وقد تظنه شخصًا آخر.

قبل أن أنهي، مضطر لكوني صحفي بالأساس وتدربت على توقُّع ردود الفعل، أن أؤكد أنني هنا لا أسخر من الاكتئاب، ولا أدعو لمقاطعة من يقومون بهذه التصرفات، أنا فقط بعد ١٠ سنوات من السباحة في بحر الفيس بوك، وجدتني أكتشف، ليس فقط بالتأمل والتفلسف، ولكن بالمراقبة والبحث والتحقيق الذي تعلِّمه لنا مهنة الصحافة، أن كثيرين من هؤلاء الذين يطلقون أطنان الطاقة السلبية عبر السوشيال ميديا، هم في واقع الأمر أشخاص مصابون بخلل نفسي قد يصل لحد الاكتئاب، وأن بعضهم يعالج فعلًا لكنهم لا يقولون ذلك علنًا، ولا أعلم هل الطبيب ينصحه باستهلاك جزءٍ من وقته على الفيس بوك أم لا، وهل يراقب المعالج نوعية ما يكتبه مريضه للناس، وكيف يحاكمهم ويعبر عن رأيه في الآخرين والأحداث متأثرًا بما يمر به من أزمات نفسية، ومدى تأثير ذلك على حالته وعلى حالة من حوله.

الذي اقترب ولم يرَ



في فيلم «الذل» إنتاج عام ١٩٩٠، مشهد لا يخرج من ذاكرة مَن شاهده، عندما يموت عم البطل الذي عامله بقسوة طوال حياته لسفهه وإسرافه، ليصبح البطل هو الوريث الوحيد، لكن مشاعر الانتقام تغلب الإحساس بالانتصار الذي سبَّبه قضاء الله وقدره، فيرفض البطل، كان اسمه «عزيز خزبك» وجسَّده يحيي الفخراني، أن يتظاهر بالحزن على عمه والوقوف في صوان العزاء لتلقي المواساة، بل يدخل السرادق بفرقة موسيقية وسيارات ودراجات بخارية وثلة من الراقصات، وقد أعدَّ أغنية خصيصًا لهذا الحفل يقول مطلعها «مات مِن ظلمه وقلة حلمه والرحمة متجوزش عليه»، فيستوقف خادم المتوفى المقرئ طالبًا منه عدم مغادرة العزاء وإلقاء عظة لإبطال مفعول الحفل، فيردُّ الشيخ وهو يكمل طريقه للخارج «مَن لم يكن الموت له من واعظ فلا فائدة من كل المواعظ».

صدقَ الشيخ، فالبطل لم يردعه انقباض روح عمه أيًّا كان حجم الخلاف بينهما، وقرَّر الانتقام والتشفي، اقترب البطل إذًا ورأى لكنه لم يتعظ، و«الذي اقترب ورأى» هو اسم أول مجموعة قصصية لعلاء الأسواني صاحب «عمارة يعقوبيان»، أصدرها قبل سنوات من روايته الأشهر، لكنه عانى في العثور على ناشر محترف فلم تحقق الانتشار، وعندما عرف طريق الشهرة ونجومية الأدب، أعاد إصدار قصصها مع قصص جديدة في مجموعة أسماها «نيران صديقة».

تعبير «الذي اقترب ورأى» ظلَّ يلح عليَّ كثيرًا أثناء التحضير لمسودة هذا الكتاب، لكن بعد إضافة حرف الجزم «لم»، شغلني كثيرًا الذين اقتربوا ولم يروا، حالة تتكرر أمامي دومًا على صفحات السوشيال ميديا، واللافت أنه لا رابط بينهم، الأمر غير متعلق بمستوى التعليم أو المرحلة العمرية أو المستوى الطبقي، بل مرتبط في تقديري بصفة إنسانية لا تفضحها إلا أحداث عاصفة، حيث تنعكس عنا جميعًا، صورة ذات بُعدٍ واحدٍ طالما أن العواصف تهب من أي اتجاه، ومع وصول موجات الريح الأولى تبدأ الأبعاد الخفية لنفس الصورة في الظهور.

سنوات كاشفة مرَّ بها الناس في بلادي، جعلت مشاعر الدهشة والاستغراب والصدمة هي السائدة كرد فعل من الناس على تصرفات الآخرين، تلك التصرفات التي لم نكن لنلاحظها لولا التجربة العصيبة التي مررنا بها جميعًا، المقياس تغيَّر، الرأي العجيب الذي كان من

السهل أن تقوله بين مجموعة أصدقاء في جلسة على مقهى أو تجمع في نادي بات سبباً للغضب منك والحنق عليك إذا كتبته كما هو على صفحات التواصل الاجتماعي، في البداية قد يتساهل معك أصدقاؤك لأنهم يعرفون طبيعة شخصيتك والمعنى من وراء كلامك، لكنَّ الآخرين لن يكون لديهم نفس القدرة على التحمل والجلد، فتخسرهم في البداية ثم تبدأ تدريجيًّا في خسارة أصدقائك، إما لأن شططك سيصيبهم أجلا أو عاجلا، أو لأنهم سيستلمون لضغوط عدم الدفاع عنك لإصرارك على عدم الرؤية رغم أنك اقتربت.

الذي اقترب ورأى عليه أن يغيِّر قناعاته أو على الأقل يخفيها، لكن الذي اقترب وكأنه لم يرَ خسارته تصبح أكبر، والنفور منه يصبح واجباً، إنه كالشخص الذي يقود بك سيارة على جسر بلا حواجز ويصر على الاحتفاظ بسرعته كما هي وبقواعده دون تبديل، ثم يكتفي بالتأسف لأنه سقط بك من الأعلى، رغم كل صيحات التحذير، بل يعيد الكرة كل يوم لكن مع ضحايا جدد، رغم أن الجسر كما هو لم يتغير ولم تضاف له أي قواعد للأمان.

هو مش عارف إن الكلام ده يزعل، طب كاتبه ليه؟

هو إزاي يكتب حاجة زي دي وليه مسحها ما كلنا شفناها؟

هو مش كان قال هيسكت رجع تاني يجادل ليه؟

هو مش مؤيد لفلان، إزاي بيكتب كلام ضد مصالح نفس الفلان؟

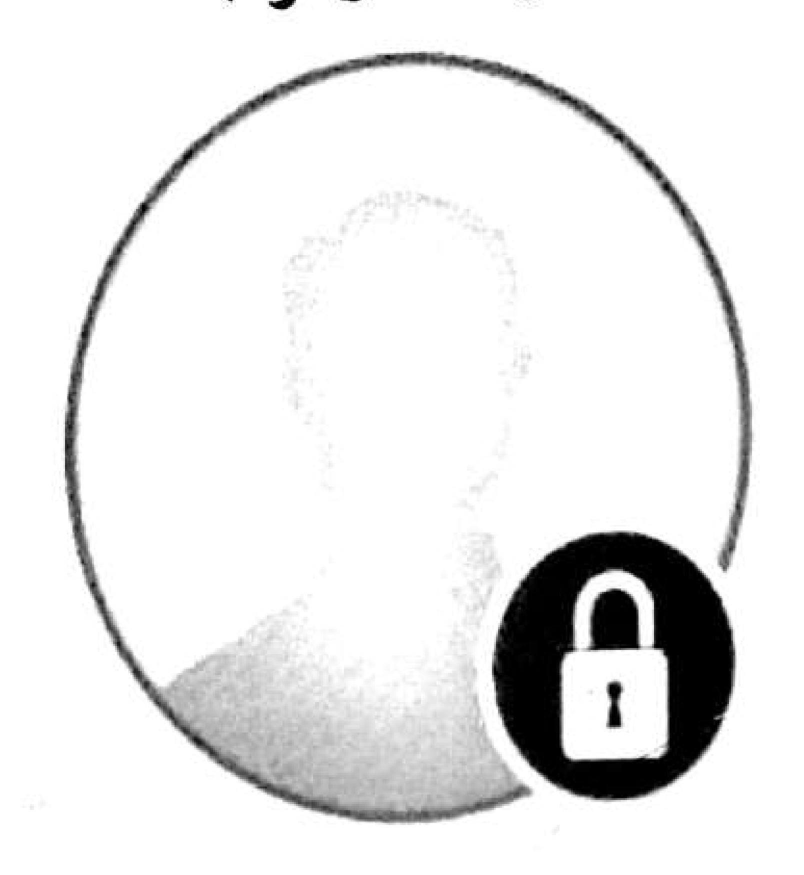
أسئلة يومية متكررة تعليقًا على تصرفات هؤلاء، الذين اقتربوا ولم يروا، الذين يدّعون الفهم، يحللون، ينظِّرون، لكن ما يفعلونه يؤكد أن شيئًا ما في درجة إبصارهم أو لنقل بصيرتهم يحتاج للعلاج، الحكمة نعمة، والحماقة نقيضها، لهذا أحترم مشجع الكرة الذي يبحث عن مبررات لفشل فريقه فنيًا أو لسوء التصرف إداريًا، كما أحترم الذي يقرر الامتناع عن التشجيع حتى تحسن الأمور، لكن هذا الذي يقف في المنتصف، يقول إنه مشجع مخلص، ثم ينتقد قرارات قائد الفريق باعتباره ناصحًا أمينًا وهو يدرك أن هذا القائد لن يتراجع في قراراته، يتعجب الناس من موقفه فيرد بأنه لن يكتب إلا قناعاته، فيما قناعاته هذه تتحول إلى وبالٍ عليه وعلى من يعرفه، لكنه يرفض الاعتراف، ينكر أن ما يقوله ويكتبه و ينشره بلا قيمة أو بمعنى أدق لا يحتاجه أحدٌ، إذا كنت لن تنفع فحاول ألا تضر، قاعدة ذهبية يهملها دائمًا هذا الذي اقترب وكأنه لم يرَ، غشاوة تلتصق بالأعين لكنها رغم ذلك لا تستدعي التعاطف أو حتى التفهم.

في الأحداث الجسام، مَن لا يتعلم عليه ألا يلوم من لم يقدم له يد العون، وعلى الطرف الثالث أن يتوقف عن الدهشة والسؤال.. فمَن لم يكن له الموت من واعظ فلا فائدة من كل المواعظ.

بمناسبة الذي اقترب ورأى، سؤالٌ خارج عن النص، هل اقترب علاء الأسواني فعلًا ورأى أن مكانه كمعارض أهم من مكانته كأديب، فرفض مبدأ نجيب محفوظ في الابتعاد عن السياسة وضحى

بانتشاره الأدبي مفضِّلًا خياراته السياسية، أم أنه اقترب لكنه لم يرَ أن الصورة من البداية كانت متعددة الأبعاد، لكنه اكتفى ببُعدٍ واحدٍ؟!

بين التحولات والمراجعات



دون دراسة معقدة من الصعب وضع تصنيف لطبيعة نشاط مستخدمي مواقع التواصل الاجتماعي خصوصًا عبر مدى زمني طويل، لكن يمكنني هنا التوقُّف أمام ثلاث فئات أحدها نجا من تداعيات زمن البلوك، وهو الشخص الذي انسحبَ بعد فترة ليست بالطويلة، أي نشط خلال أعوام الفوضى السياسية، ثم نتابع حسابه لاحقًا تجده نادرًا ما يكتب أو يعيد مشاركة معلومات أو صورًا، بل نادرًا ما يعلق على مشاركات غيره من الأصدقاء، لكنه يتابع ويقرأ كل ما يتعرض له في وقت زمنيّ أقل طبعًا بالمقارنة بالمتفاعلين، هذه الفئة وإن كنت أحسد أصحابها، لكن تفرعت منها فئة أخرى، هي المراقب الصامت أو The Stalkers ومعناها المراقبون أو المطاردون، هؤلاء الذين يتابعون في سكون لكن ليس بهدف المعرفة، وإنما التقييم والرصد وتجميع سلوكيات الناشطين وتحليلها، والخروج بنتائج عنهم

لعلّها تصبح مفيدة فيما بعد، طبعًا هناك برامج تقنية تفعل ذلك لكنني أتحدث هنا عن البشر، الذين يدخلوا حسابات الآخرين في صمتٍ يجمعون معلومات ويخزنون آراء صاحب الحساب ثم يستخدمونها في الوقت المناسب، ولا ينجو من ذلك سوى الذي ينشر أفكاره وصوره للأصدقاء فقط ويكون على عِلمٍ بشخصية كل صديق لديه وهو أمرٌ مستحيل التحقق، فلا يوجد على الفيس بوك من الفاعلين مَن ينفذ هذا الشرط، وإن وُجدَ فسيكون شخصًا عاديًّا لا يستحق المطاردة، كما أنه من المستحيل أن تضمن أن أحدًا من أصدقائك سيحترم خصوصيتك ولن ينقل ما تكتب للآخرين.

الفئة الثانية التي تثير دهشة البعض ويضطر أصحابها للدفاع عن أنفسهم، هؤلاء الذين قاموا بمراجعات لما كانوا يفعلون عبر السوشيال ميديا وقت التفاعل السياسي، وهو بالنسبة للمصريين مثلًا من يناير ٢٠١١ حتى نهاية ٢٠١٣ تقريبًا، كثيرون أنعم الله عليهم بفضيلة المراجعات، فقرَّر أنه ربما كان انفعاليًّا أكثر من اللازم، وكان متعجلًا في إصدار الأحكام على الأشخاص، سواء الإدانة أو البراءة، حسب الهوى السياسي، وشعر بأنه عاش قلقًا كبيرًا لفترة ليست بالقصيرة، ومعظمنا قد يكتشف القلق بأثر رجعي بعدما أطلق الفيس بوك خاصية «الميموريز» فجعلت الإنسان يتأمل في كل ما كان يكتب قبل عامين وثلاثة، ليجد نفسه وقد نسي أحيانًا سبب كتابة هذا «البوست» أو قد قسا على الشخص الذي يهاجمه أو أنه أصابَ القول لكنَّ شيئًا لم يتغير، في هذه الحالة يشعر أنه كان من الأفضل عدم نزول البحر،

وأن السير على الشاطئ لفترة أطول أكثر أمانًا.

هنا يخرج المتفرجون ويشعرون أنهم فقدوا مادةً كانت تشغلهم، وشخصًا كان يعوِّض شجاعتهم المنقوصة وينزل البحر بدلًا منهم، فيهاجمونه وينتقدونه ويتساءلون لماذا تغير؟! دون أن يفهموا أن كل إنسان مسؤول عن تصرفاته أمام نفسه أولًا وبعد ذلك يمكنه أن يبرر للآخرين، فقد أدى توغل السوشيال ميديا إلى درجة أن الناس باتت هي من تتحكم فيما يفعل صاحب البروفايل وليس عقله وقلبه وإرادته الحرة. اللافت في هذه النقطة أن معظم أصحاب المراجعات لهم خلفيات سياسية، لكن نادرًا ما نجد من كتبوا في الدين والفن والرياضة وقد عادوا لهدوئهم، وأدركوا أن وصول الأفكار والتعبير عنها كان من الممكن أن يحدث بشكل أفضل من ذلك.

الفئة الثالثة: المتحولون. وهؤلاء يثيرون دهشة ممزوجة بالتقزز، وللأسف يطرح الناس حولهم سؤالًا يخاصمه المنطق، هو: لماذا تغيَّر فلان بهذا الشكل، وكيف تحوَّل دون أن تظهر أي بوادر مبكرة للشخصية الجديدة؟ عادة ما يرتبط السؤال بأن المتحول يعيد تقديم نفسه لجمهوره القديم بفجاجة تعجب جمهوره الجديد الذي لم يكن يعرفه قبل الاختلاف، المنطق يغيب عن المندهشين لأنهم ينسون أنه لا تحولات منطقية في هذا الصدد أصلًا، لم يتعرض مثلًا المتحوِّل إلى حادث عنيف غيَّر أفكاره كما يحدث في أرض الواقع، لم يفقد عزيزًا، لم يهدر ثروة، لم يتعرض لظلم ما، بحيث يصبح التحول مبررًا، هو فقط كان يسير في طريق وفجأة توقف وانتقل لطريق آخر

معاكس، لسببٍ بسيطٍ أنه كان ينتظر ظهور الاتجاه الأكثر فائدة بالنسبة له، ببساطة هو رمى نفسه في بحر الفيس بوك باحثًا عن أفضل سفينة ممكنة، والتفضيل هنا ليس مرتبطًا بأفكار أو مبادئ وإنما بالمصلحة، ربما عندما قفزَ لأول مرة كانت معظم السفن الموجودة «ثورية» فتسلَّق على متنها مؤقتًا، لكن سنلاحظ عادة أن مثل هؤلاء لا يترقى سريعًا لرتبة الربان، بل ينتظر ويتأمل ويرصد اتجاهات الريح أولًا بأول، وعندما يجد أن سفينة أخرى أكبر تمر إلى الجوار يرسل إشارةً لربانها بأنه مستعدٌ للقفز، إرسال الإشارة سهل للغاية، كتابة منشورات ومشاركة معلومات تشيد بالسفينة الأخرى حتى يرمي ربَّانُها له طوق الانضمام، فيما الجالسون على الشاطئ يندهشون دون أن يدركوا أنه لا يملك من البداية شرف البحارة، ويكتفون بضرب كفٍّ على كفٍّ ولوم صاحب المراجعات، لأنه ترك البحر برمته وفضَّل السير على الشاطئ.

المشهد الشهير



مع تقادم الذكريات، تزيد صعوبة الرجوع للحظة اللقاء الأولى بين ذاكرتك والعنصر الذي التصق بها، سواء كان اسمًا أو شخصًا، صوتًا أو صورة، معنى أو نصًا، ورغم أن هذا الأمر عادة ما يدفع الإنسان للأسى على نفسه، لكن أجدني أنظر لنصف الكوب الممتلئ، كوني ما زلت أتذكر الأمر الأساسي ومن العبث إذًا البكاء على نصف الكوب المسكوب.

المثال على ذلك في هذا الفصل، المشهد الشهير بين محمود المليجي وأحمد زكي في فيلم «إسكندرية ليه» إنتاج عام ١٩٧٩ وهو المشهد الذي يعرفه محبو الفيلم ومريدو يوسف شاهين بالسؤال الخالد «وعايزني أكسبها؟»، حقًا أنا لا أتذكر هل أعجبني الحوار في أول مشاهدة للفيلم، أم أنني شاهدته ولم يبقَ في ذاكرتي، ثم لفت الانتباه له شخص

آخر فأعدت المشاهدة وحفظته، أم أنني شاهدت الفيلم أصلًا لأن أحدهم أرشدني للشريط وللمشهد في آنٍ، لا يهم الآن الوصول لأصل الموضوع، المهم أمران؛ الأول أنني ما زلت بعد نحو ٤٠ عامًا من إنتاج الفيلم أجد من يتكلم عن المشهد عبر مواقع التواصل الاجتماعي ويتذكره ويستشهد به، في دلالة واضحة على أن الفن الحقيقي يبقى، دلالة تجعلني أندهش دومًا، وأتمنى لو عدت بآلة الزمن إلى الوراء لأحضر التصوير وأعرف هل كان صُنَّاع هذا الفيلم أو ذاك يتوقعون خلودَ عباراتٍ بعينها أو حتى العمل بالكامل، أم غادروا يومَها مكان التصوير لأن اليوم انتهى وغدًا يوم آخر وحسب.

الأمر الثاني المهم، هو إعادة النظر في الفكرة التي خرجنا بها من المشهد والتي أراحت مَن أعجبهم وأنا منهم لسنواتٍ، فكرة تبدو انهزامية لكنني الآن وقد وصلت للفلسفة أراها تعبِّر عن انتصار من نوعٍ ما، انتصار يتحقق عندما يصل صاحبه للحقيقة ويعترف بها دون مقاومة لا تجدي.

لنسترجع المشهد أولًا ثم نناقش الاستنتاج الجديد.

يبدأ بالمشهد بالمتهم إبراهيم الشرقاوي أو أحمد زكي وهو قيد التحقيق، ويذهب له المحامي شكري مراد «المليجي»، لكن زكي يرفض وجود محامٍ لأنه يعتبر المحاكمة كلها مزيفة، فيبدأ المليجي في المونولوج الشهير قائلًا:

- أنت يا بني خايف لأكسب القضية، من الناحية دي اطمن..

هخسرها، ٩٩٪ هخسرها، وهيحكموا عليك وهيكون حكم قاسي أوي، وللمرة المليون هيقولوا عليا محامي حمار، نعمل ايه قسمتنا كدة حمار بيدافع عن حمار.

قبل أن يجيب على دهشة أحمد زكي عندما يسأله: «لما أنت عارف إنك هتخسرها جاي ليه» ويصل إلى لُبّ الموضوع.

- تنفيسة، تنفيسة ليا وليك، كلمة حلوة نقولها، صحافي يلقط مننا لمحة نضيفة، قاضي تلفت منه كلمة شجاعة، أهي تنفيسة للكل، زمن! زمن يبرّروا فيه إنهم يرموا البومب على دماغ ناس ماهومش دعوة بالحرب خالص، وعايزني أكسبها؟! زمن بتتشوي فيه الناس في الأفران عشان لون جلدها أحمر ولّا أسمر ولّا عينيها مسبسبة، وعايزني أكسبها؟! زمن بيلمّوا فيه ولاد الناس سن ١٦ و١٧ ويُدوهم تحت الرمل باسم الحُريَّاتِ الأربعة، وعايزني أكسبها؟! زمن بيكسِّبوا فيه فرد واحد ٥٠٠٠ جنيه في دقيقة، ويغلُّوا على التاني أجرة الترومواي، وعايزني أكسبها؟!

يكرر المليجي سؤال: «وعايزني أكسبها» ٤ مرات، ويخرج من عنده متمنياً أن يخففوا الحكم على الأقل، لينتهي المشهد بصوت القاضي وهو يحكم بحبس المتهم ١٥ سنة، تماماً كما توقَّع المحامي شكري مراد في أول المشهد.

حفظنا المشهد في البداية كدلالة على اليأس وعدم الأمل، وأننا فقط نمارس حياتنا بحثاً عن «تنفيسة»، وهذا صحيح إلى حدٍّ كبيرٍ،

أنفذه كثيرًا هذه الأيام، نكتب مقالًا لدعم تجربة فنية تستحق، لكننا نعلم أنه مجرد تنفيسة وأن الإيرادات الضخمة ستصب في جيوب من لا يستحق.

ما الذي تغيَّر وجعلني أنظر للمشهد من زاوية أخرى، ربما أكون مخطئًا لكنني أرى الآن أن الاستسلام للأمر الواقع انتصارًا جعل يحيي مراد في الفيلم راضيًا عمَّا يفعل، خارجًا من المحكمة ربما يشعر بالأسى، لكنه على الأقل غير مصدوم مما وصلَتْ إليه مجريات القضية، إن الاقتناع بغياب الأمل أفضل دواء للإحباط، لا تندهش، سأشرح في الفقرة التالية.

عندما تشعر كل مرة بأن هناك أملًا في التغيير سيتضاعف إحباطك كلما جاءت النتائج عكس مقدماتك الوهمية، أما عندما تقتنع أصلًا أن الطريق في نهايته مسدود في كل الأحوال، فهذا ما يسمح لك بعدم التفاؤل بالوصول لما بعدَ السدّ، ويجعلك تفكر إما في بدائل أيٍّ طُرقٍ أخرى لعلَّها تكون أفضل، أَو على الأقل فيما يمكن أن تفعله خلالَ المسافة التي ستقطعها إلى السد، قبل أن تقف وتعيد الكرة مرة أخرى وأنت مقتنع أن لا شيء سيتغير.

المحامي في الفيلم أراد المساعدة، لعلَّ وعسى يجد تنفيسة له وللمتهم ولمن قد يستمع ويتعاطف، لكنه لم ينتظر أكثر من ذلك، هذا في رأيي انتصارٌ وليس يأسًا واستسلامًا، طبقها في حياتك العملية فإذا صارت الأمور كما هي عليه ستتفادى على الأقل موجات الإحباط،

أما إذا حدثت المعجزة و «كسبتها» فهنيئًا لك، ولتعتبر وقتها أن ما جاء في المشهد -الذي لا أتذكر متى أحببته أنا- مجرد كلام أفلام لا علاقة له بأرض الواقع.

الكثير من زكريا



لـ «سعد الله ونوس»، المسرحي السوري الشهير، نَصٌّ ذائع الصيت اسمه «الفيل يا ملك الزمان»، يحكي عن ملك في زمنٍ ما، أو لنقل وارد وجوده في أي زمن، لديه فيل، والحيوان الضخم معروف عنه ضعف النظر، ولأنه فيل الملك، مسموح بتجوُّله دون حراسة في أي مكان، يعبث بالزرع، يهدم البيوت، يصيب الرعية، حتى قتل ابن أحدهم تحت قدميه، فتضاعف غضب الناس وقادهم شخص يدعى زكريا إلى قصر الملك ودرَّبهم قبلها على صياغة شكواهم وإلقائها في صوت موحد أمام الحاكم، لكن ما حدثَ أن زكريا بدأ الحديث لكن من معه صمتوا، كرَّر البداية المتفق عليها ثلاث مرات لكنَّ لسانا لم يتحرك ليدعم الموقف، كاد الملك أن يبطش بزكريا الذي حوَّل الموقف سريعًا إلى أنهم جاءوا إلى قصره ليس للشكوى التي لم يكن الملك قد استمع حتى لمقدمتها، وإن عرف أن الحديث بخصوص

الفيل، وإنما جاءوا - حسب زكريا- ليطالبوا الملك بأن يزوج الفيل حتى يشعر بالسعادة، ففرح الملك بحنان رعيته على فيله المحبوب، وعيّن زكريا حارسًا للفيل.

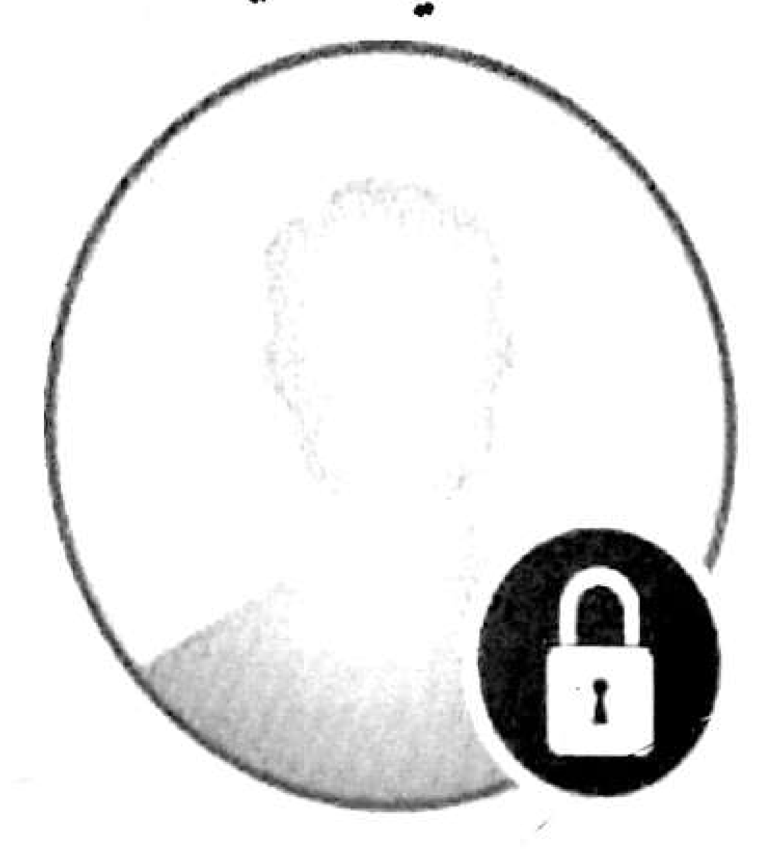
لهذا كثرت الفيلة، هكذا يحدّث الممثلون الجمهور في نهاية العرض، هل بسبب الخوف من الكلام فقط أم لأن زكريا أنقذ رقبته من القطع بأن وقف إلى صف الفيل؟ المعنى عند سعد الله ونوس، لكن المهم هنا هو أن زكريا، وهو الشخصية الوحيدة التي حملت اسمًا في النص، فالباقي كانوا أرقامًا، زكريا تحوّل في لحظة، من ثائر أو لنقل محركٍ للأحداث، إلى مستفيد من بقاء الوضع على ما هو عليه، دخلوا جميعًا خائفين من أن يكرر الفيل كوارثه فخرجوا كما هم، فيما زكريا الوحيد الذي أصبح حارسًا للفيل، لأنه الوحيد الذي تكلم، لم يكمل الكلام المتفق عليه فلن يواجه الملك وحده، لكنه لم يصمت وينسحب، فضّل الخروج بمكسب، خسر قضيته لكنه لم يخسر رقبته.

الكثير من زكريا موجودون الآن على مواقع التواصل الاجتماعي، عانى الناس لكشفهم في البدايات لكنهم الآن أكثر وضوحًا لهذا فإن مهمتهم باتت أصعب، ربما الفرق بين معظمهم وبين زكريا، أن الأخير كانت نواياه في البداية نبيلة وصادقة، لكنّ من معه خذلوه فتحولت شجاعته إلى براجماتية، أما أتباعه على التايم لاين فيكررون القصة كما هي.

اختلف، فما أسهل أن تجمع الناس حولك على فيس بوك بنشر معلومات وتصريحات ومواقف تدغدغ المشاعر وتلبي ما يريده الملايين، لكن حتى بدون أن تدفع الثمن، بمجرد إشارة يعرف مُطلِقُها جيدًا كيف يرسلها ومتى، تحول الكلمات، تهدأ النبرات، ويبدأ موسم جني المكاسب.

غير أن المفارقة كما هي أساس نجاح الدراما، فمفارقات الحياة أكبر، الظروف باتت تتغير أسرع مما يتوقع «الزكريون» - مفردها زكريا طبعًا- بعضهم يتلقى الإشارة ولا يدرك أنها ضعيفة فيهرول للضفة الأخرى، وبعد برهة من الزمن يجد الضفة نفسها تتخلى عنه فيما طريق العودة للضفة الأولى مغلق للأبد، بعضهم يظن أن حراسة الفيل هي الأمل والمنتهى، ليفاجأ بمرور الوقت أن الفيل نفسه لم يعد مفضّلًا لدى الملك، وأن سكان الحديقة التي يفضِّلها مولاهم بها حيوانات أكثر لديهم حراس، فيما لو مات الفيل لم يلُمه أحد، فيعود من حيث أتى، يكتب على الفيس بوك وتويتر، ينادي، يناشد، يذكِّرهم بخدماته، ينبههم إلى إخلاصه، لكن لا أحد يرد، فقد باعوه كما باع هو الناس أول مرة.. في قصر ملك الزمان.

حسين فهمي وداني جلوفر



تخيَّل لو أن الفيس بوك كان موجودًا أيام الملك فاروق، أو أن الألقاب لم تلغَ رسميًّا بعد، بالتأكيد كان سيحق لأحمد بيه أو إبراهيم باشا أن يكتب اسمه مصحوبًا باللقب على بروفايله الشخصي، فتجد مثلًا أن إبراهيم باشا شفيق أرسل لك طلب صداقة أو أحمد بيه متولي قام بمشاركة آخر منشوراتك، انتهت الألقاب رسميًّا لكنها لم تنتهِ أبدًا في تعاملات المصريين، غير أن اللقب ظلَّ قبل السوشيال ميديا يُمنَح لصاحبه بناء على درجة ثرائه، أو منصبه خصوصًا لو في الشرطة أو الجيش، أو مكانته المرموقة داخل وزارة أو مصلحة حكومية، ثم جاء الفيس بوك ليسهل على البعض منح ألقاب لأنفسهم، وإن كان معظمهم اختار الألقاب المهنية، فتجد أحدهم يضع صورة رجل ويتكلم كرجل لكن اسمه «إنجي» بالإنجليزية قبل أن تكتشف أن eng لا ينقصها حرف الـ y، وإنما تعني أن صاحب البروفايل مهندس،

وبالعربية بات الوضع أسهل، فهناك من يكتب قبل اسمه كلمة الأستاذ أو الكاتب الصحفي أو المؤرخ أو الموسيقار، وكل ما يمكن أن نتوقعه من ألقاب، ظاهرة فيسبوكية يمكن تحليلها من حكايات تتضمن النقيض سمعتها من مهندس ديكور شهير وصديقه رئيس مهرجان سينمائي، في جلسة انتظار الصعود إلى طائرة كانت متجهة لمدينة مصرية.

مهندس الديكور هو فوزي العوامري، وهو أحد أسطوات هذه المهنة في السينما والدراما والبرامج، كان يحكي أن الفنان الكبير حسين فهمي ذهبَ مرةً إلى معهد السينما لزيارة صديقه المونتير الراحل سعيد الشيخ، طرقَ باب غرفة التدريب فوجدَ الطلاب ولم يجد الأستاذ، كان ذلك قبل المحمول بالتأكيد، فقال لمن ردَّ عليه «قول لأستاذ سعيد، حسين فهمي سأل عليك» وأكد عليه الاسم، لم يقل له «قول لأستاذ سعيد إني سألت عليه» بل ذكرَ اسمه وكأن الطالب لا يعرفه، رغم أن ذلك عمليًّا مستحيل ولو أن المستحيل تحقق فالسخرية واجبة من الطالب بالطبع، بالمناسبة هذه القاعدة تعلَّمناها مبكرًا في أيام الصحافة الأولى، لا تفترض وأنت تكتب الحبر وتعليق الصورة أن كل الجمهور يعرف من بها، لعلَّ قارئًا واحدًا لا يعرف أن الصورة بها النجم المشهور فلان، فمن حقه علينا أن نوضح تحت الصورة من بها حتى لو كانوا أشهر مشاهير الأرض.

أما ثالث الجلسة سيد فؤاد رئيس مهرجان الأقصر السينمائي، فتذكر أنَّ محاضرًا وكاتبًا سياسيًّا معروفًا كان معهم في رحلة نيلية خلال

المهرجان، وعلى نفس المركب ممثل هو ضيف الندوة، جلسا سويًّا وتجاذبا أطراف الحديث، لكن كل دقيقة يتدخل أحدهم ويطلب صورة مع الممثل الذي استجاب للجميع بصبر وذوق رفيع، ليضطر الرجل المصري لسؤال الجالس بجواره «ما اسمك وما هي مهنتك؟» ليرد بمنتهى البساطة «اسمي داني جلوفر ومهنتي ممثل»، قد يلام الرجل المصري لأنه تواجَد في المهرجان ولم يكن يعرف «داني جلوفر»، لكن الأخير لم يبدِ أي استياء لأنه يجالس رجلًا لا يعرفه، فمرضُ الشهرة تظهر أعراضه عندما يفرض الشخص أنه بالبديهة معروف للجميع، وهو أمرٌ غير صحيح حتى لو كان الشخص هو دونالد ترامب.

ما الذي فعله بنا الفيس بوك إذًا وجعل البعض يظن أنه سيحقق الشهرة ويصبح تحت الأضواء لأنه سيكتب لقبه أو مهنته بجوار اسمه؟! كيف حوَّلنا بروفايل الفيس بوك لما يشبه لافتة كبار التجار عندما كان يكتب عليها «تجارة الحاج فلان وأولاده»، لماذا لم يفهم هؤلاء أن الشهرة تأتي من المحتوى وتحديدًا من رأي الناس في المحتوى الذي تقدّمه، وليس رأيك أنت في نفسك؟ وأن مارك زوكربيرج ذات نفسه لم يكتب بجوار اسمه أنه صاحب المحل.

القاعدة الباطلة



«الشغل مبيقفش على حد!!»

أعتقد هذه العبارة سمعها كلُّ مَن مارس الحياة العملية في مصر، بل إن بعضهم تُقال له باعتبارها قاعدة يجب أن يتذكرها دائمًا، حتى تردعه عن التفكير في أي تمرد أو احتجاج على مجريات الأمور، ويتوهم بأن تلويحه بالمغادرة قد يجعل مديروه يخشون من «توقف» عجلة الإنتاج، فالشغل حسب القاعدة «الباطلة».. مبيقفش على حد.

صحيح الشغل أو الدراسة أو أي دائرة إنتاج وتفاعل ميتقفش على حد، سيستمر كل شيء، لن يغلق باب مصنع أو شركة أو معرض لأن موظفًا فردًا قرَّر التوقف احتجاجًا، أو المغادرة بحثًا عن فرصة أفضل، يتوقف فقط العمل عندما يحدث إضراب عام، هنا لا يمكن أن تستمع إلى القاعدة الباطلة، بل يتحول الكلام في اتجاه آخر، أنتم

أصحاب المكان، لا يمكن أن تسبِّبوا الضرر له، عودوا إلى أماكنكم وطلباتكم محل نقاش.

مهلًا، هذا الفصل ليس عن حقوق العمال، لكنه عودةٌ من جديد لمناقشة الفرق في تعامُل المجتمع بين «الفرد» و«المجموع»، حيث يظَلُّ «الفرد» مستضعفًا أيًّا كانت قوته الشخصية وإمكاناته الذاتية، هذه نقطة، أما النقطة الأهم فهي أن «الشغل بيقف فعلًا على حد»، قد يكون هذا «الحد» موظفًا مخلصًا، مديرًا محترفًا، قانونيًّا يفهم في الإجراءات، عاملًا يذهب ويجيئ بالطرود والمراسلات، وصولًا للساعي وعامل النظافة، أيٌّ من هؤلاء يمكن أن يجعل الشغل يتوقف، لكنه ليس بالشكل الذي يعنيه أصحاب القاعدة البطالة، ستظل عجلة الإنتاج دائرة، والمكان مفتوح، والمهام اليومية تنفَّذ حتى لو تأخرت قليلًا، ولن يعترف أحد بسهولة أن الشغل تعطَّل لأن «فردًا» بات غير موجود سواء بصفة مؤقتة أو دائمة.

معظم الجهات أو المؤسسات التي تنهار على فترات زمنية طويلة، تبدأ خسائرها بالتطبيق الأعمى للقاعدة الباطلة المذكورة أعلاه، البدايات تكون سهلة مدعومة بعجرفة وتعالٍ ممن لا يريدون الاعتراف بأن فردًا واحدًا سيؤثر، وأن الاستجابة لطلباته العادلة أفضل كثيرًا من إلقائها على الأرض، اعتمادًا على أن الشغل مبيقفش على حد، يخرج الأول، ثم الثاني، ثم الثالث وهكذا تباعًا، ويبقى من تستفيد إمكاناتهم المحدودة من غياب المحترفين، بل إن هؤلاء لاحقًا يطبقون القاعدة لصالحهم ويتحكمون في أصحاب المكان، فلم يبقَ غيرهم ولن

يستطيع الرئيس هنا التظاهر بأن «الشغل مبيقفش على حد» لأنه يتعامل مع آخِر مجموعة تستطيع أن تحرِّك عجلة الإنتاج حتى ولو في أدنى مستوياتها، فيما القاعدة الأولى في الإدارة تقول بضرورة خَلْق مناخ تنافسي بين العاملين وإن اختلفت مستوياتهم، حتى يضمن صاحب المكان الأداء الأفضل، فإذا خرج بعضهم يظل الباقون مخلصين لأن القاعدة الباطلة لا توضع في وجوههم صباح كل يوم.

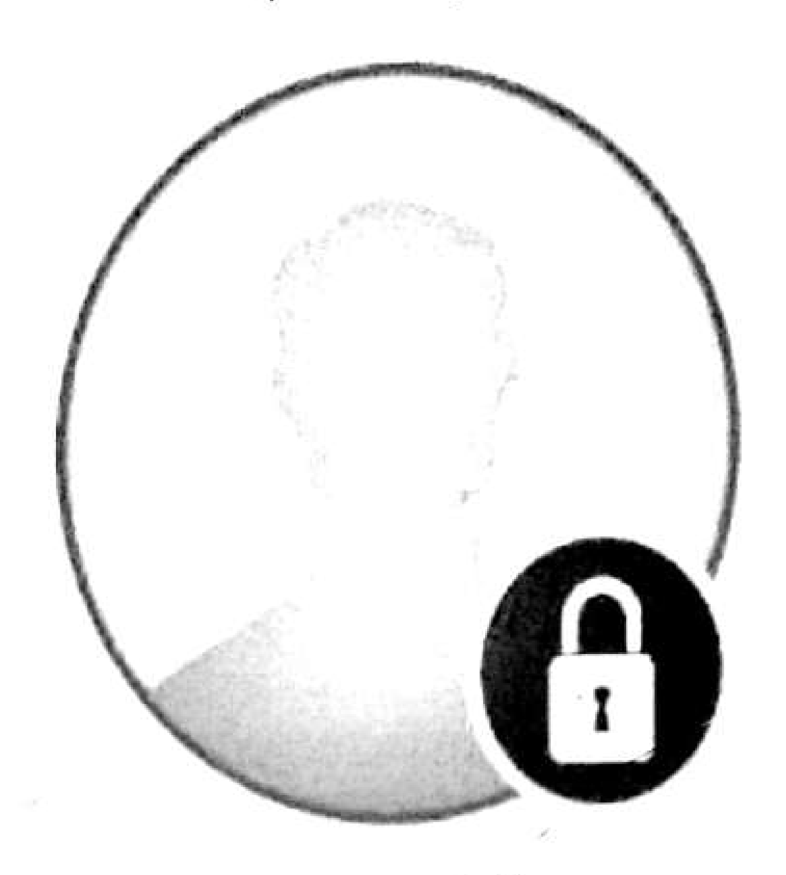
يزيد الطين بلة عندما تكون الملكية حكومية، وممثل الحكومة قد يكون أحيانًا شخصًا يعتبر الطلبات العادلة «لوي دراع»، ولأن الحكومة لا تغلق أبوابها أبدًا، فإن القاعدة الباطلة هنا تجد لها ألف مؤمن، فيما الكافر يخرج غير مأسوف عليه، وبما أن أمثلة هذه الكتاب تأتي دائمًا من السوشيال ميديا وأحيانًا من الميديا نفسها، فإن التأثير السلبي لقاعدة «الشغل مبيقفش على حد» يظهر بوضوح في الصحف والمجلات الأسبوعية، التي تعتمد على فريق محدود العدد لطبيعة عملها، هذا الفريق يتكون على سنوات متتالية ويعرف كل فردٍ فيه دوره ومهامه حتى ولو تفاوتت الإمكانات كما أشرت قبل قليل، لكن كفريق الكرة دائمًا ما تجتمع عناصر الخبرة مع الوجوه الشابة المنتجة مع الاحتياطيين الذين وإن لم يضيفوا فلا يضروا، ومع أول تغيُّر في أسلوب الإدارة، وظهور الاحتجاجات أو الطلبات، ومع أول تلويح لفرد بالمغادرة تسطع القاعدة في سماء المكان، لكنه سطوع الشمس التي تسبِّب لمن يسير تحتها ضربةً لا يشعر بتأثيرها إلا بعد فوات الأوان، يخرج الأول فالثاني ويبدأ المتابع يشعر أن

شيئًا ما ينقص، المطبوعة تخرج في موعدها كل أسبوع، بنفس عدد الصفحات، بكل التفاصيل «الظاهرية» المعتادة، فالشغل ميبقفش على حد، لكنَّ شيئًا ما ينقص ثم يتحول الشيء لأشياء، روح المكان تتبخر، القدرة على المتابعة والتحليل، الرسامون والمصورون، كل هؤلاء يغادرون ويتركون الاحتياطي في الملعب.

بالمناسبة يمكن تطبيق نَفْس ما سبقَ على أي سلعة ينتجها مصنعٌ ما، كيف تتغير الجودة، ويختلف الشكل النهائي دون أن يشعر المستهلك إلا لاحقًا، يمكن تطبيقه على مركز لخدمة العملاء، كيف أن ردود الموظفين تختلف وتعاملُهم المهذب يختفي ويحل الفظ بدلًا منها، ببساطة لأن الجيل الأول من الموظفين أُجبر على الخروج بسبب الغيرة أو غياب العدالة، ولأن مديرًا أحمقَ ظنَّ أن جلوس آخرين بدلًا منهم لن يُحدِث أثرًا سلبيًّا عند المستهلك.

عزيزي الفرد، إذا كنت مُجيدًا في عملك، موهوبًا بما تفعل أو على الأقل تخلص في أدائه وتلتزم بقواعده، اعلم جيدًا أن «الشغل بيقف عليك» وأن شروطك لو لم يلبِّها مديرك الأول ولا حتى الثاني، ستجد حتمًا في الثالث ومَن بعده من يعتبر وجودك أساسيًّا ويرفض التفريط فيك.. فقط ثق في نفسك.

المعادلة الناقصة



سؤال: كيف تغيرت نظرةُ أهل بيروت المطلين على شاطئ البحر المتوسط لموقع سكنهم بعد انفجارات أغسطس ٢٠٢٠؟!

سؤال موازٍ: هؤلاء الذين اعتادوا مراقبة الآخرين الذين يمتلكون كلَّ ما هو مميز، هل يمكن أن ينظروا بعين الحسود لشخص قال إنه يسعى لشراء شقة مطلة على مرفأ بيروت بعد انفجارات أغسطس ٢٠٢٠؟

ما يمكن أن يطرح للتأمل بعد انقشاع غبار هذه الانفجارات، ودفن الضحايا، والتئام الجروح، أن المكان الذي اعتبِرَ لعقودٍ دُرةَ مواقع السكنِ في بيروت، والدليل عدد المشاهير الذين أصابتهم الفاجعة، تحوَّل إلى نقمة؛ أن تسكن في مكان مميز يجب أن تضمن ابتعاده التام عن أي خطرٍ غير متوقع، في الأحوال العادية، أنت تبعد

تلقائيًا عن تأجير أو امتلاك مسكن يقع بالقرن من مداخن مصانع، أو مصارف مائية غير صحية، في بعض المناطق تنهار أسعار العقارات القريبة من خطوط الضغط العالي المخصَّصة لنقل الكهرباء ليس خوفًا من اشتعالها وإنما لأن ذبذباتها تؤثر على الأجهزة والأجساد القريبة منها، في المناطق الجبلية تبتعد عن أي منطقة قيل ولو للتشنيع أنها معرضة للانهيار أو الهبوط في أي وقت، حتى لو لم يكن لديك دليلٌ على صحة هذا الكلام، الإنسان يبحث دائمًا عن الأمان ويحاول أن يجد ضمانًا لتوافره الدائم، فكيف الحال لو أن المكان آمن ويقع في أجمل منطقة في مدينة كبيروت ويطل على البحر الأبيض المتوسط، لدرجة أن معظم البنايات واجهاتها زجاجية فلست بحاجة -عكس العادة في مصر- لفتح الشبابيك أو دخول البلكونات حتى ترى البحر.

هذه المعادلة انهارت تمامًا، المشاهير هربوا إلى الجبل، لعلَّه يكون أكثر أمانًا، لكن الموت يأتي كما يقول الله في كتابه الكريم «ولو كنتم في بروج مشيدة»، مهما ارتفعتَ بالبنيان وأحطته بالحراس، وابتعدت بداخله عن دوائر الزحام والعشوائية، قد يأتيك الموتُ من حيثٍ لا نتوقع، من مخزن رقمه ١٢ وُضِعت فيه قبل ٦ سنوات موادٌّ قابلة للانفجار في أي لحظة، ربما لو كان من انتقل للعيش في بنايات المرفأ قد عرفَ المعلومة ما أعارها اهتمامًا، فالناس في لبنان اعتادوا على خطر قصف الطيران أو السيارات المخففة، وليس انفجار نترات الأمونيوم.

راجع مرة أخرى الفيديوهات التي خرجت من الحادث في ذلك الوقت، لا تظنها متشابهة، ردود الفعل وماذا كان يفعل أصحابها قبل لحظات من الانفجار تختلف، وجه الشبه الوحيد أن أحدًا منهم لم يتوقع أن يأتي الموت بهذه الطريقة.

تمامًا، كالذي كان يفاخر بأنه نجح في الوصول للبلد الذي يتمنى العيش فيه، جهّز كل الحسابات، أعد خطة طويلة الأمد، ربما غرّته الأماني فقطع حبال الود مع البلد الأم، وبمجرد أن ذهب للضفة الأخرى جاءته كورونا تحاصره في منزل، ربما يكون أقل قدرًا من بيت الصبا والشباب، فيجد نفسه حائرًا في بلد غريب، لا يعرف أين يذهب ولا يستطيع حتى العودة وإن أصلح حبال الود، مثله كمثل المقيم على شاطئ البحر في بيروت، لا توقعات بأنه في لحظة ستندلع النيران وينكسر الزجاج وتنهار العقارات، لا توقعات بأن الطيران سيتوقف والبيوت ستغلق على أصحابها حيث لا أماكن في المستشفيات.

كلتا الحالتين، بل نحن البشر عمومًا، نضع المعطيات بجوار بعضها البعض لنصل لنتائج نظنها دومًا نهائية، ونجهل أن المعادلة لا تزال ناقصةً، وأن يدًا عليا يمكنها أن تتدخل في لحظة وتغيّر ما كان مقدرًا من قَبل آلاف السنين أن يقع، فتجبرنا هذه اليد أن نقف عاجزين محاصرين معترفين أننا بمفردنا، ومهما كانت دقة الحسابات لا نضمن صحة المعادلة، تجبرنا اليد على أن نتذكر دومًا أن لا شيء يكتمل دون رعاية الله الذي يذكّرنا دومًا أن يده ستظل فوق أيدينا لكن آفة حياتنا

النسيان.

عورات مجانية



النوم والأكل عورتان فاستروهما، أو الأكل والشرب في رواية أخرى، عبارة متداولة بين الناس منذ سنوات باعتبارها حديثًا نبويًّا لكنها ليست كذلك، عندما سمعتها لأول مرة قبل نحو ثلاثين عامًا، دخلَتْ ذاكرتي ولم تخرج لأنني سألت قائلها: «النوم ماشي أكيد محدش يحب غريب يشوفه وهو نايم، لكن الأكل ليه؟»، قال لعلَّ أحدهم يكون بسيطًا وأكله رخيص فلا يشعر بالحرج من معرفة الآخرين بحالته الاقتصادية، والعكس صحيح فقد يأتيك الحسد من إدراك المراقبين لقائمة طعامك خصوصًا ولو بشكل شِبه يومي وليس بالصدفة، طبعًا البعض خصوصًا المتشددين تعاملوا مع القاعدة بشكلٍ مُجهِدٍ لأي إنسانٍ، فكان بعضهم يرفض الأكل في المطاعم، أو في الولائم العائلية وغير ذلك من مواقف من الصعب فيها ستر الطعام، واليوم نحمد الله على أنها ليست حديثًا بالفعل، وإن كانت سيرة

الرسول الكريم بها الكثير من آداب الطعام المؤكدة والموثوقة عنه، فلو أن هذه المقولة حديثًا لوقَع في المحظور مئاتُ الآلاف من الناس الذين ينشرون صور أطباق طعامهم المليئة بما لذَّ وطابَ يوميًّا، لدرجة أن هناك مجموعات مليونية على فيس بوك مهتمة بأصحاب الكروش الثائرين على أي نظام غذائي، وإن كان ينافسهم مجموعات أخرى تُطبِّق أنظمة صحية منضبطة وكأنه لولا الفيس بوك لم يكن الناس سيمارسون عاداتهم الغذائية والصحية، وفارق كبير طبعًا بين أن نتعلم من التايم لاين كيف تصنع وجبة دسمة أو تتناول طعامًا خاليًا من الكوليسترول، وبين أن يعيش الناس معك في مطبخ بيتك ويعرفون ماذا تأكل، بل إن محللي الصور هؤلاء المتفرغين للملاحظات الصغيرة التافهة لم يعودوا يكتفون بالنظر للأكل فقط وتقييمه، وإنما يتوقعون سعر الأطباق وباقي الإكسسورات التي تظهر في الخلفية.

حسنًا، هذا الموضوع ليس عن نشر صور الأكلات على فيس بوك، ولا عن الرأي الشرعي فيها، فالإسلام وباقي الأديان بالتأكيد حذَّروا من التباهي بالطعام والشراب والملبس، بعيدًا عن صحة أو عدم صحة الحديث الذي بدأنا به هذه السطور، بل حتى الحكيم الصيني كونفوشيوس يقول في أحد وصاياه لتلاميذه: «من لا يهتم إلا ببطنه فلا قيمة له». ليس الموضوع عن كل هذا، وإنما عن «نشر العورات» في زمن يشكو فيه الكل من الخصوصية، بشكلٍ يجعلنا في منزلة المنافقين، ليس بعضنا ولا معظمنا بل «جمعاء» كما كان يقول محيي إسماعيل في «خلي بالك من زوزو»، وقياس ذلك سواء كان

لديك ٥٠٠ صديق، أو الحد الأقصى وهو خمسة آلاف، راجع الصور والمنشورات التي نشرتها في الشهور الأخيرة واحسب نسبة المضمون الذي لم يكن ليراه أحدٌ لولا أنك نشرته على فيس بوك، هل تريد مثالًا توضيحيًّا؟ لك هذا، لو أنك اشتريت كتابًا، فالكتاب في حد ذاته لا يعتبر من العورات الشخصية إلا لو كنت ستنشره للتباهي وليس لتبادل الثقافات والنصح بالمعرفة، وإذا كنت تقرأ في المواصلات أو مكان الدراسة أو العمل فوارد أن يراه الآخرون وأنت تقرأه، لكن ما تناولته من طعام أو شراب مع أهل بيتك فقط هل كان من الوارد أن يعرفه أحدٌ قبل جهاز المحمول المزوَّد بكاميرا؟ أرجو أن يكون الفرق واضحًا لأن كل شيء اختلط على السوشيال ميديا. من الممكن أن تنشر شهادة نجاحك التي لم يكن ليلاحظها أحد إلا على جدار منزلك، هنا أنت لا تخالف القاعدة التي دوَّنتها قبل قليل، لأنك ببساطة تنشرها لتشكر مَن ساعدوك في المشوار ولتتلقى المباركات، وأيضًا ربما لتعلن عن استعدادك للعمل، ثم إن شهادة النجاح حدثٌ لا يتكرر كثيرًا في حياة الإنسان، لكن أن توافي الناس يوميًّا بأطباق الإفطار والغداء، وبكل ما تشتريه من ملابس، وبكل جرح يصيب إصبع يدك الأصغر، وكل كيلو فقدته من وزنك، وبمواعيد نومك المضطربة، وبما تشاهده على الشاشة، كل هذا بكثافة وبدون فلاتر تمرر ما يصلح وتحول دون معرفة الناس بما يجرح، ثم نتوقع من الباقي نفس المعاملة، وتراقب حياتهم كما يتابعونك، فإن النتيجة الإجمالية لكل ذلك هو ما يقوله كونفوشيوس أيضًا «إن الذين يجتمعون كلَّ يومٍ

للحديث عن الموضوعات التافهة، يكون حديثهم غير منطقي»، طبعًا هذه الترجمة العربية للنَصّ الصيني، لكن بتصرف بسيط يمكن أن نفهم أن الرجل الذي عاشَ قبل ألفي عام يصف ما يحدث الآن على التايم لاين، ناس يجتمعون دون معرفة سابقة، لتبادُل كلام وتفاصيل تافهة لم يكن ليتبادلوها عن بعضهم البعض لولا السوشيال ميديا، التي دمرت المقولة الكلاسيكية «هو أنا فاكر أنا فطرت إيه إمبارح» بعدما وثَّقْنَا تفاصيل حياتنا البسيطة داخل سيرفرات مواقع التواصل، ثم نشكو بعدها من أن الناس يتتبعون أخبارنا، ونتجادل فيما إذا كان صوت المرأة عورة أم لا، بينما المجادلون أنفسهم منحوا عوراتهم للغرباء مجانًا وعن طيب خاطر.

الوصية قبل قبل قبل الأخيرة



موثِّر بالقطع أن يصحب إعلانَ وفاة شخصٍ ما -خصوصًا لو كان شابًا- اكتشافُ أنه توقع وفاته قبل أيام من صعود الروح لبارئها، أو أنه حتى قبل فترة أطول كتب فيما معناه عن إحساسه بأن عمره في الدنيا قصير، شعور بالأسى يصيب مَن يقرأ الخبر وبجواره صورة من نبوءة الراحل، لكن دون أن نتجاهل أن آخرين كتبوا ذلك أيضًا لكن أمدَّ الله في عمرهم، فالإنسان أضعف من أن يتوقع موعد وفاته أو طريقتها، وحدوث ذلك هو استثناء لا يؤكد أي قواعد، لكنه يدعونا بالطبع للتأمُّل والتدبُّر.

ما سبقَ كان المؤثر، أما المستفز فهو قيام البعض كلَّ فترة بنشر ما يمكن أن نصفه بالوصية الأخيرة التي تلحقها وصايا أخرى بشكلٍ مثير للضيق وجالب للاكتئاب، ويؤكد كيف يمكن أن ينتج هؤلاء

طاقاتٍ سلبيةً لا حدود لانتشارها بسبب هذا النوع من «البوستات».

لاحظ بداية أن هناك فرقًا كبيرًا بين المؤثر الذي بدأنا به هذه السطور والمستفز، الأول عادة ما تكون صياغة الكلمات بشكل تأملي في مشوار حياته وأن يخشى عدم إنجاز ما يحلم به، أو عندما يشعر بدنو الأجل بسبب مرض ما يعلن عدم يقينه من قدرته على المقاومة والعبور من الأزمة بسلام، أما الثاني فهو يكتب ما يشبه الوصية، يطالب المختلفين معه بأن يسامحوه، ويعلن أنه تسامح مع الآخرين، وأنه مستعد لتسديد أي حقوق في رقبته لو ذكَّره أحدهم بها، ويزيد أحدهم بأنه يطلب مسامحته على أي وعودٍ قطعها ولم ينفذها، وبالطبع تنتهي الوصية بطلب الدعاء، يعقب ذلك أيامٌ من القلق على صاحب الكلمات، وهو أمرٌ مرغوبٌ وتجاهُله منافٍ للإنسانية، لكن الموقف سيتغير بالتأكيد إذا جربت أن تكتب اسم صاحب المنشور في خانة البحث على فيس بوك وبجوارها بعض كلماته خصوصًا «سامحوني» مثلًا، لتكتشف أن هذا المنشور ليس الأول، وإنما الخامس في أربع سنوات، وربما أكثر، لكن نتيجة البحث لا تظهر كاملة، هنا نحن أمام موقف معقَّد، شخص يشعر كل فترة بدنو الأجل، أو بأزمة ما، فيكتب مودعًا، ليصيب من حوله بالذعر، ثم يعود لحياته الطبيعية وتمر الشهور ويكررها مرة أخرى، وكأن ذاكرته هو الشخصية تُمحى باستمرار، طبعًا الناس البسطاء يتفاعلون في كل مرة، لكن البعض يتوقف أمام هذه التصرفات، ويتساءل: هل أصلًا التايم لاين مكان لكتابة الوصايا؟ هذا السؤال يطعن من الأساس في فكرة هذا النوع من

البوستات، ثم لو فرضنا أنَّ هناك من تطلب مسامحتهم كل فترة فلماذا لا تخاطبهم مباشرةً أم أنَّ عددهم كبير لهذا الحد فتتوجه لهم من خلال منشور يراه آلاف البشر، معظمهم لا ذنب لهم في خلافاتك مع الآخرين، لا يعرفون هل أنت ظالم أم مظلوم.

الملاحظة التالية قد تبدو ساخرة لكنها شديدة الجدية، لو أن صاحب هذه الوصية يتذكر أصلًا أنه كتبها عدة مرات، كما كان يفعل يحيى الفخراني في فيلم «أرض الأحلام»، لماذا لا يقول في المنشور الجديد أرجو أن يسامحني من أغضبتهم في الشهور العشرة الأخيرة أي منذ تاريخ الوصية السابقة، جاءتني هذه الملاحظة عندما علَّق صديق على وصايا زميل من هذا النوع بأنه سامحه بالفعل عدة مرات ومستعد لمسامحته فيما هو قادمٌ بشرط التوقف عن نشر الوصايا، لأنه المفروض وحسب القواعد التي تعلمناها قبل عصر الفيس بوك، المفروض أن وصية واحدة تكفي إذا كانت فعلًا وصية حقيقية.

قضية حسية



مرَّ على هذه الواقعة قُرابة ٢٤ عامًا، لكنني لا أنساها قَطّ، رغم أنني ربما نسيت الكثير مما علمني إياه نفس الرجل عندما كنت أجلس أمامه في مدرجّات كلية الإعلام، مادة الفكر المعاصر ضمن المواد التي كان يحصل عليها طلاب الإعلام في العامين الدراسيين الأول ثمّ الثاني قبل التخصص في العام الثالث، قد يكون هذا النظام تغيّر الآن، حيث درست في كلية الإعلام بين عامي ١٩٩٣ و١٩٩٧، ومدرس المادة كان الفيلسوف والمفكر الكبير الدكتور حسن حفني.

لم أكن بين الطلاب في هذه المحاضرة، ذهبت بعد انتهائها لأخبر زميلتي بأمرٍ يتعلق بنشاطات اتحاد الطلاب أو ربما شيء آخر، كما قلتِ لا أتذكر سوى جملتيّ حوارٍ جمعَا المفكِّر والطالبة، التي كان قد

وبخها خلال المحاضرة بسبب عدم التركيز والحديث مع جارتها في المدرج، لم أكن بالداخل ولم أشهد هل كانت تكلمها فعلًا أم لا، أنا أصلًا عرفت سبب النقاش من خلال الحوار الذي استخدم فيه الدكتور مصطلحات منطقية ليبرهن على أنه رجل يعيش ما يدرسه للطلاب ولا ينفصل عنه.

قالت الطالبة للدكتور إنها لم تكلم زميلتها لأنها كانت منهمكة في كتابة تلخيص ما يقوله الأستاذ، فرد عليها بأنه رآها بعينيه تتكلم، لترد بأنها كانت تكتب ولا تتكلم، لينهي النقاش بسبب علمي يدفعه لعدم الاقتناع بدوافعها، وبالتالي عدم تحقيق مطلبها بأن يسحب التوبيخ، قال المفكر الكبير أمامي حيث كنت قد اقتربت منهما، «أنتِ تتكلمين من منطلق عقلي وأنا أتكلم عن قضية حسية»، يعني الطالبة تقول إنها بالمنطق هي لم تهمس لزميلتها بأي تعليقات لأنها كانت تكتب بالتالي من الصعب - منطقيًّا- أو بتحكيم العقل أن تقوم بالفعلين في وقت واحد، بينما هو شاهدها بعينيه أي استخدم حاسَّةً من الحواس الخمس، والعين هنا أصدق من العقل، أو هكذا حكمَ لينهي النقاش.

هناك مسارٌ ثالثٌ بالمناسبة، أن الزميلة كانت تكتب فعلًا ثم بدأت تهمس وتعلِّق بأي شيء لجارتها وهنا شاهدها الأستاذ، ووبخها أمام الطلاب، فأرادت التخفيف من حدة الموقع بالاستناد لما يمكن اعتباره دليل براءة.

قبل أن تغضب وتترك الكتاب من يديك لأن صاحبه يحكي لك

عن واقعة حصلت بين طالبة وأستاذ بسبب «الرغي» في محاضرة قبل ٢٤ سنة وهو أمرٌ لا يهم، اصبر قليلًا لنصل سويًّا للفلسفة من وراء القصة.

اليقين الذي كان يتكلَّم به الدكتور، جاء بسبب اعتماده على حاسَّة النظر التي تخصه هو، التي يثق بها، وكان يدرك بعقله أن عينيه لا تكذبان، وشاهد الطالبة فعلًا وهي تتكلم لهذا كان قلبه قويًّا في إنزال العقوبة بها وعدم الرضوخ للابتزاز المعنوي الذي قامت به الزميلة، وهي كانت شخصية محترمة أتمنى أن تكون بخير الآن وفي أحسن حال، هذا اليقين ربما غيابه عن الإنسان في أحوال عديدة خصوصًا في زمن السوشيال ميديا أصبح سببًا رئيسيًّا فيما يشعر به من شقاء، كثرة الإحباطات والخذلان وعدم الثقة في أي شيء.

يحيط بنا أناس كثيرون، يمرون من أمامنا، يثيرون جلبة خلفنا، نضطر لأن نصدر أحكامًا بناء على كلمات يكتبونها وهم جالسون على أجهزتهم المحمولة أو الثابتة لا ندرك مدى صحتها، نحتاج لتدقيق مستمر يصيب أي إنسان عادي بالإجهاد والصداع والرغبة إما في العزلة أو الاستسلام لما يقرأ، بل يصدقه دون دليل وينفعل لو أن أحدًا قرَّر أن يغير تلك الأفكار، لأن البشر بطبيعتهم ضدَّ التغيير خاصة لو جاء ناسفًا لما اعتبره الإنسان حقائق لفترات طويلة، أو تدميرًا لصورة شخص ظلَّ ردحًا من الزمن محترمًا وذا هيبة في أعين الناس، ثم بسهولة يأتي من يشكك ويقلب الموازين حتى لو كان معه دليل؟

السوشيال ميديا - والكتّاب ليس موجهًا ضدها وإنما يرصد آثارها- حالت بين الإنسان وحواسه الخمس، لم نعد نلمس أو نشم أو نتذوق شيئًا، فقط شاشات المحمول، الوسيط الذي ينقل ما يراد له أن ينقل وليس ما يحدث فعلًا، نسمع ونرى خصوصًا وأن الفيديوهات والإنفوجرافات هي الأكثر انتشارًا، لكن حواسنا شبه معطّلة لأن من تراه أو تسمعه في معظم الأحيان ليس حقيقيًّا، خصوصًا بعدما وصلنا للمرحلة التي يطلق عليها الـdeep fake ، فتجد رئيسًا أو وزيرًا يتكلم أمامك بصوته وكامل جسده، لكن الفيديو نفسه مفبرك من الألف للياء ولا تعرف أنه كذلك إلا باستخدام تقنيات متطورة.

غير أن ما بدأناه في هذا الفصل، لا يتعلّق بعدم الثقة في الأمور السياسية، هذا أمرٌ مفروض علينا في عالم اختار قائدوه أن ينفذوا خططهم بأي سلاح حتى لو كان الأكاذيب العميقة، لكن حتى على المستوى الإنساني البسيط باتت حواسنا مجمدة، قد تعطل حاسة التذوق لديك وتقنع نفسك أنك تناولت طعامًا رائعًا، لأنك ذهبت لمكان بناء على ترشيح آخر قال لك عبر فيديو أن الطعام هناك سيعجبك، بالمنطق أنه طالما خبير الطعام قال ذلك فإنه صادق، فيما قد تكذِّب لسان الذي تذوّقه لأنك لا تثق فيه، عكس ما فعل المفكر الكبير مع عينيه، جرِ خطًّا وطبّق على حالات كثيرة ستجد الهمَّ واحدًا، نتابع النجوم عبر المنصات وهم ظرفاء لطفاء يردون التحية عبر لوحة المفاتيح بأحسن منهم، ونصدم عندما نشاهد بعضهم على أرض الواقع يتعاملون بتعالٍ وغلظة قلب، ولو أن صديقًا سمع الواقعة

وهو أيضًا من مهاويس النجم فغالبًا لن يصدقك وقد يتهمك أنت بسوء التقدير، لا تحزن ساعتها فصديقك أيضًا حواسه معطلة،

العلامة الزرقاء



لماذا يفرح الكثيرون بحصولهم على العلامة الزرقاء خصوصًا عبر فيس بوك؟ لا أتحدث هنا عن مجرد الإعلان عن وجودها على صفحاتهم الشخصية على السوشيال ميديا، لكن عمّن يكتبون الخبر بفرح وفخر شديد يستدعي دخول المئات للتهنئة، وكأن صاحب الحوار ترقّى في الوظيفة أو اليوم عقد قرانه أو استقبل مولودًا جديدًا.

الوصول للإجابة يستدعي أولًا تعريف «العلامة الزرقاء»، وهي الشارة التي تضعها مواقع التواصل الاجتماعي وأولهم فيس بوك طبعًا على الصفحات العامة والشخصية كدليل على التوثيق أي أن الموقع استوثق من أن صاحب هذا البروفايل هو فعلًا فلان الفلاني، أو أن تلك الصفحة تعبّر عن النجم أو الوزارة أو الشركة أو الجهة التي تحمل اسمها، والسبب أنه في فوضى البدايات كان يمكن لأي شخص

أن يُنشِئ صفحةً باسم أحد المشاهير، سواء «بروفايل» شخصي ويكلم الناس منه باعتباره هو، أو صفحة معجبين مفتوحة، بل إن بعض الشباب دخل مجال السوشيال ميديا وحصد أموالًا من هذا المنطلق، يطلق صفحة لأحد المشاهير ويجمع الملايين من المعجبين فيضطر النجم الذي كان بعيدًا عن السوشيال ميديا ولا يدرك أهميتها، أن يشتري منه الصفحة لأنه لا مجال لصناعة صفحة منافسة، وبعضهم أسَّس صفحات على تويتر لكبار الشعراء في أواخر حياتهم، وبعد وفاتهم يقوم ببيع الصفحة بمن عليها من متابعين لآخرين يغيرون اسمها ويكملون المشوار بمئات الآلاف من المتابعين، ومعظمهم لن يهتم كثيرًا بأن صفحة كانت تحمل اسم أحمد فؤاد نجم تحوَّلت باسم أحد السياسيين الجدد بل قد لا يلاحظون ما جرى.

ما سبق دفع المنصات وفي مقدمتها الفيس بوك لتنشيط عملية تسويق الصفحات والبروفايلات الشخصية للحد من الظاهرة، ومن النكت المروية في هذا المجال أن أحد الفنانين فوجئ بأن الصفحة المزوَّرة موثقة، واحتاج الفيس بوك أو من يديرونه إلى أن يرسل الفنان صاحب الحق ما يثبت أنه يدير الصفحة غير الموثقة ليقوموا بنزع العلامة الزرقاء من الصفحة المزورة ونقلها للصفحة التي تخص الفنان، أي أن هؤلاء الذين يدَّعون حرصهم على مواجهة الأخبار الكاذبة وخلافه، خدعهم البعض ونجحوا في توثيق صفحات لا تمتّ لأصحابها النجوم بصلة.

حتى نكون أكثر صراحة، فإن أي عمل بشري ولو كان في وكالة

ناسا وعلى سطح القمر معرَّض للتدخلات الشخصية، وأقول بعد تجارب طويلة أنه حتى توثيق الصفحات يتم بالواسطة في أحيانٍ كثيرة، الأمر الذي أنتج ظاهرة الفرحة الشديدة بالعلامة الزرقاء والتي تعني في رأيي أن بحث البعض عن الاحترام بات يحدث بوسائل لم تكن متوقَّعة قبل سنوات قليلة، كان البعض ممن يحتاج لإثبات وجوده لمن حوله على الأقل يفرح بشهادة تقدير مجاملة أو بتكريم في حفل كل مكرميه من المغامير، أو بالظهور في أي برنامج تلفزيوني حتى لو كان العاملون به لا يشاهدونه، غير أن السوشيال ميديا فرضت مفردات احترام جديدة، نخدعت هؤلاء الذين اعتبروا العلامة الزرقاء دليلًا على أنهم أصبحوا «بابليك فيجر» كما يكتب بجوار أسمائهم فور الحصول على العلامة.

ما كان يقال قبل انتشارها، أن تلك العلامة تحدّ من فُرَص نجاح سرقة الحساب، وتمنع آخرين من إنشاء حسابات بنفس الاسم والصورة، بالتالي فالمشهور الحقيقي يحتاجها منعًا للتقليد، لكن أن تجد البعض ممن حققوا انتشارًا داخل أوساط بعينها لا أكثر يفرحون بها ويتفاخرون، فهو ما دفعني للتساؤل عن تطوّر «المظهرية» في مجتمعنا، في أوقات سابقة كان الفخر أحيانًا يكون بمحل السكن أو بنوع السيارة، بل من لا يمتلك سيارة يتمنظر بكونه لا يركب إلا تاكسيات، ويستاء جدًّا لو ضبطه أحدهم متلبسًا في المترو أو الميكروباص، يتمنظر بحضور حفل في سفارة، افتتاح مهرجان، مؤتمر في فندق، ويظل يحكي عنه لأيام، لكن أن يصل التفاخر إلى حد

التباهي بعلامة يرسلها لك موظف داخل فيس بوك ويمكنه أن يسحبها في لحظة، بل لم تمنع من إغلاق صفحات وحسابات شخصية، فهو أمرٌ يدل في رأيي على تراجُع ثقة الإنسان في نفسه في زمنٍ تحوّل فيه التايم لاين إلى سوق عكاظ في التراث الشعبي، حيث الكل يجب أن يرفع صوتَه ويشير إلى نفسه صباحًا ومساءً لعلّ المارة المزدحم بهم التايم لاين يلتفتون إليه.

والشيء بالشيء يذكر، فإن العلامة الزرقاء ليست الوحيدة التي تم استخدامها للشعور بالاحترام على التايم لاين، تمر بذاكرتي الآن مرحلة كثرت فيها المؤتمرات الرسمية ومعظمها كان بحضور رئيس الجمهورية، وكان يدعى المئات من الناس من فئات ومهن مختلفة الموجودون منهم على فيس بوك، معظمهم لجأ للحيلة نفسها، نشر الدعوة، الدعوة التي دائمًا ما تحمل كلمة «شخصية» بات الكل يراها ويطلع عليها، أي أن المدعو بنشرها خالفَ أهم قواعدها ألا يطلع عليها إلا الشخص الذي سيسمح لك بالمرور عبر باب المؤتمر، لكن شهوة التفاخر دفعت أحدهم لنشرها ليجد الباقين أنفسهم في صراع، هل يعلنون عن أنهم لا يقلّون عنه شيئًا وسيتواجدون في المكان نفسه أم يتريثون قليلًا، والإجابة معروفة، الشهوة انتصرت، لكن هؤلاء لاحقًا وضعوا أنفسهم في مأزق غير متوقع، مأزق من المفترض أن يدفع صاحبه للتأمُّل وعدم إعطاء الأمان لأي حدثٍ سعيدٍ طالما لا يوجد ضامن بأنه سيتكرر، فبعضُ مَن اعتادوا نشر الدعوات غابت أسماؤهم عن أحداث لاحقة، ووقعوا في الفخ، فنفس الذين راقبوهم

واعتبروهم من المهمين بعدما نشروا أول وثاني دعوة، بالتأكيد اعتبروهم مغضوب عليهم بعدما اختفت الدعوات لاحقًا وظهرت على حسابات أشخاص جدد.

هؤلاء لا يختلفون كثيرًا عن بعض ممن تفاخروا بالعلامة الزرقاء، واعتبروها دليلًا على الاحترام والتقدير، قبل أن يتعرضوا لحملات هجوم سواء بسبب سرقة بوستات أو التورط في مشكلات مهنية أو أخلاقية، فلم تنفعهم العلامة الزرقاء في شيء بل حملت حساباتهم علامة أخرى لم يظنوا يومًا أن تلتصق بهم.

سرادق عزاء بتذاكر؟!



مَن تابع من قبل تصريحات لنجوم المسرح تحديدًا وليس لأي فنٍّ آخر، لا يستغرب قطعًا أن توصي فنانة بأن تخرج جنازتها من المسرح القومي، أما مَن لم يقرأ فلا يعرف أن جنازات عديدة لفنانين معروفين خرجت من هذا المكان، وأن المسرح -ومكانه ميدان العتبة بقلب القاهرة- له مكانة خاصة في قلب أبنائه وصدور محبي فن التشخيص بشكل عام، إذا قورن بأي صرحٍ فنيٍّ آخر.

مَن لم ولا يقرأ لن يعرف أيضًا أن كثيرين ممن دمجوا بين حياتهم المهنية والشخصية في مجالات عمل مختلفة، وليس الفن فقط، تمنوا وأوصوا بأن تخرج جنازتهم من المكان الذي أعطوه جل سنوات حياتهم، مسرح كان أو جامعة أو مدرسة أو ملعب كرة.

مَن لم ولا يقرأ موجود طوال الوقت، بل يزيد العدد بكل أسفٍ، أو

بمعنى أدق يرتبط الجهل بالبجاحة وقلة الذوق وتوجيه الإيذاء النفسي للآخرين حتى ولو كان ذلك غير متعمد.

نموذج متكامل على ما سبق، ما حدثَ مع سلوى محمد علي، وهي فنانة حققت مكانتها الفنية بأسلوب النقاط كما يحدث في لعبة الملاكمة، أي بتراكمات استمرت قرابة ٤٠ عامًا، فلم تصبح نجمة فجأة ولن تصبح لكنها باتت معروفة في السنوات الأخيرة، معروفة اسمًا ومعروفة أيضًا بكونها صاحبة آراء راقية ومواقف اجتماعية وفنية محترمة، هذه الفنانة صرَّحَت بأنها تريد أن تخرج جنازتها من المسرح القومي ليعود هذا التقليد من جديد، علمًا بأنها قالت ذلك في برنامج تلفزيوني وليس من على فراش المرض، أي أنها كانت تتكلم في الفكرة وليس في واقعة بعينها، ورغم أنها كتبت كثيرًا لتدافع عن زملاء لها لاقوا ما لا يسرهم عبر مواقع التواصل، لكن ذلك ربما لم يجعلها تتجاهل ما لاقته هي شخصيًا عندما دخلت على صفحة جريدة معروفة، وقرأت تعليقات الناس على وصيتها الشخصية.

أبسط تعليق يمكن أن أذكره هنا، جمعَ بين ثقل الظل وإهانة تقليد العزاء الذي من المفترض أن المصريين - والبشر عمومًا- يقدرونه ويعتبرون حضوره إثباتًا على حسن الخلق والأصل الطيب، كتب أحدهم وربما أكثر من شخص أنه إذا كانت الجنازة ستخرج من المسرح القومي فبالتأكيد سيكون حضور العزاء بتذاكر!!.. تعليق سخيف أليس كذلك؟! لو كان مضمونًا الدخول في جدال على فيس بوك دون أن يصل الصدام لذِكر الوالدين بأبشع الألفاظ، ربما

رددتُ على المتحاذق ثقيل الظل بأن يطمئن لأن الحضور سيكون مجانًا أو بدعوات، أو أرشده إلى موقع لحجز التذاكر مثلًا، لكن كفى الله المؤمنين شر القتال في الحرب، وقتال السوشيال ميديا بات أكثر إيلامًا، وكفى الجرح الذي تسبَّب فيه هؤلاء للفنانة القديرة، لكنه وضع أمامي من جديد السؤال الأهم، هل ظهر كل هؤلاء الحمقى بعد السوشيال ميديا أم أنهم موجودون من قبل؟

هم قطعًا موجودون من قبل، لا حاجة للتفكير في ذلك، هؤلاء الذين يحوِّلون ألسنتهم لسكاكين تنال من حق فنانة محترمة في أن توصي بمكان جنازتها، أو ينالون من زوجة ممثل كوميدي لأنها حضرت حفل زفاف بعد أسابيع من وفاة نجلها، أو يتنمرون على طفلة لاعب شهير بسبب ملابسها، كل هؤلاء وغيرهم، فالأمثلة لا تُعَدّ ولا تحصى موجودون من قبل السوشيال ميديا، كانوا يقرأون نفس التصريحات ويطالعون ذات الصور ويرمون بكل التعليقات السخيفة لكنها داخل حجراتهم المغلقة أو على مقاعد القهوة التي يتسامرون عليها قتلًا لوقت فراغ لن يمتلئ أبدًا، لأن الفارغ بحقٍّ هو عقولهم وليس أي شيء آخر.

زمان كانت الإشاعة أو التعليق السخيف لا يصدقه الشخص المعروف إلا بعد أن يسمعه من ثلاثة وربما أكثر، ولا يفكر في نفي الشائعة أو الرد على التعليق، إلا بعدما يتأكد من شيوعه وتمر عدة أيام ويظل البعض يكلمه حول نفس الموضوع، الآن بعد دقائق من نشر التصريح أو الصورة يفاجأ صاحب الشأن بأن جحيم الآخرين قد بدأ،

وأن فيالق الحمقى كما وصفها ألبرتو إيكو قد زحفت بالفعل وجاءت من كل فجٍّ عميقٍ في ثوانٍ معدودة، في رأيي أن إيكو وفَّر علينا كثيرًا بوصفه البديع لهذه الظاهرة، فالأديب الإيطالي رأى في ٢٠١٥ أن مواقع التواصل الاجتماعي وكانت وقتها فيس بوك وتويتر ومن بعدهما إنستجرام، ما هي إلا «منصات تمنح حق الكلام لفيالق من الحمقى، ممن كانوا يتكلمون في البارات فقط بعد تناوُل كأسٍ من النبيذ، دون أن يتسببوا بأي ضررٍ للمجتمع، وكان يتم إسكاتهم فورًا. أما الآن فلهم الحق بالكلام مثلهم مثل من يحمل جائزة نوبل. إنه غزو البلهاء».

إذًا، الجديد أن الحمقى خرجوا من الحانات والمقاهي ومن منازلهم، وباتوا يطاردون الجميع، أزالت المنصات حاجز الخجل ومنحت فاقدي البصيرة شجاعةً وهمية، وأسقطت من عقولهم فرضية أساسية وهي أن صاحب الشأن سيقرأ ما يكتبون، هذه الفرضية ربما لو حضرت في أذهانهم وقت إخراج الكلمات المسيئة ربما لتراجع نصفهم على الأقل، بل لو علموا أن النجم سيقرأ ويتابع لكتبوا له كلمات حب وإعجاب لا كره وانتقاد.

التعليقات السخيفة غنَّى لها جورج وسوف بالمنافسة قائلًا «كلام الناس لا بيقدم ولا يأخر، كلام الناس ملامة وغيرة مش أكتر»، لكن هل كان «وسوف» سيتعامل بنفسِ الصبر والحكمة لو أن التعليقات السلبية على تصريحاته تطارده كلَّ يوم؟ هل كان سيقول وقتها أن تعليقات الناس لا بتقدم ولا تأخر؟ بمعنى أدق، هل يبالغ

المشاهير أحيانًا في استيائهم من هذه التعليقات ويعطونها أهمية؟ أم أنها بالفعل مؤذية ولا بُدَّ من محاصرتها والتحذير منها؟!

مرة أخرى أشدِّد على التفرقة بين التعليقات التي تدفع بصاحبها للوقوع تحت طائلة القانون، وبين التعليقات الشخصية المهينة جارحة المشاعر لكنها غير مجرَّمة قانونًا.

كيف نتعامل مع الحمقى عبر مواقع التواصل؟ ولا تظن عزيزي الممسك الآن بهذه الصفحات أن الأمر مرتبط بالمشاهير فقط، فالحمقى لا يتركون أحدًا، لكن وجودهم يتزايد وينحسر حسب نوع الهدف، أنت شخصيًّا لو ركزت في قائمة أصدقائك ستجد من بينهم الكثير، وربما ترد بأن تعليقاتهم نادرًا ما تؤذيك، وأنك لم تكتب من قبل ما يجعلهم يستهدفونك، دعني أصدمك بأن ارتكاب الحماقات لا يحدث فقط بترك التعليقات السخيفة بل أحيانًا بعدم التعليق، بعدم الدعم، بعدم الاهتمام بما تفعل، ويحدث ذلك منهم عن عمد حتى لا يضطر إلى مجاملتك وإبداء استحسانه طالما أنه عاجز عن انتقادك لأنك تراه ويراك في الحياة العادية، الحمقى أيضًا قد لا يكتبون ما يؤذيك لكنه يتعامل مع وجودك أمامه على مواقع التواصل الاجتماعي باعتباره استباحة تجعلك صيدًا سهلًا لك كلما احتاج ولو شَربة ماء، وإذا لم ترد وأنت «أونلاين» سيضعك فورًا في قفص الاتهام وسيكتب ضدك على صفحته منشوراتٍ دون ذِكر اسمك وبجوارها هاشتاج مقصودة، وهو يظن بذلك أنه انتقم وشفى غليله، وهو ظنٌّ لا يليق إلا بأحمق.

من المواقف التي أتذكرها جيدًا وأستعيدها كثيرًا، قبل عصر المحمول، اتصلت على الهاتف الأرضي بصديق من المفترض وقتها أنه كان مقرَّبًا، سمعته بأذني وهو يقول لشقيقته عندما ذهبت لتناديه «قولتيله إني هنا؟»، يبدو أنه كان قد أعطاهم التحذير لكنهم نسوا، شعرت باستياء بالغ، ومن يومها قررت كلما اتصلت بأحدهم هاتفيًّا وذهبوا ليحضروه أن أبعد السماعة حتى يصل، وبذلك أتفادى الاستماع لأي كلمات قد تزعجني، ربما كان من المفترض وقتها أن أبتعد عن الصديق نفسه وليس عن السماعة في كل مرة جديدة اتصل به وبغيره، غير أنه يمكن اعتبار هذا التصرف -الذي مرَّ عليه الآن قرابة ٢٥ سنة- بداية للتدريب على تجاهل الحمقى وعدم الالتفات لهم، تجاهل لا أستطيع الجزم بأنه يحدث كلية، فمنهم من ينجح فعلًا في استفزازك ويجبرك على الرد عليه، لكنه حتى الآن استفزاز مرتبط بموضوعات وقضايا وليس بشخصي، لم أجرب بعد وأتمنى ألا تحدث تلك التعليقات التي يكتبها الحمقى على حائط الشخص المستهدف وليس الموضوع محل النقاش، لا أعرف حقًّا هل سأنفعل وقتها كما حدثَ مع الفنانة المحترمة التي وجدت من يقترح دخول عزائها بتذاكر مدفوعة الثمن، أم سأرفع صوتي مرددًا كلمات جورج وسوف عن كلام الناس اللي لا بيقدم ولا يأخر.

الأسطوانة المشروخة



يكتب أحدهم عن مراسلة لإحدى القنوات أخطأت في تصرُّف ما، لا يذكر اسمها، فتتراكم التعليقات التي تطالبه بالإفصاح عن الاسم، ربما كانت متدربة، أو منقولة من قناة أخرى، أو مفروضة على المكان، فلماذا يتهم المكان بأكمله، وهي قناة عريقة جدًّا بالمناسبة، وقد يكون الخطأ فرديًا، لماذا يعمم ولا يخصص، تعليقات منطقية وإن كانت أصحابها يكتبونها انحيازًا للمكان واعتبار أي نقد لتصرف فردي هو نقدٌ للمكان وتاريخه، لكن بين تلك التعليقات يدخل سيدة أو رجل، لا يهم، لتكتب كلمة واحدة «الوسايط»، أي أن تلك المراسلة التي لا يعرف أحدًا اسمها دخلت المكان بالواسطة، هكذا أنهى صاحب التعليق التحقيق في القضية، تمامًا كالرجل الذي كان يظهر في أفلام زمان جالسًا على المقهى يتظاهر بقراءة الجريدة لكن تسليته الأساسية هي تصنيف الناس، من أين عرف صاحب التعليق

أن سبب الأزمة أن المراسلة دخلت بالواسطة تحديدًا؟ لماذا لا تكون موجودة من البداية لكنّ مستواها ضعيف وعندما خرج المراسلون الجيدون تولّت هي مهام لم تكن لتقوم بها لولا قلة الكفاءات؟ بل لماذا لا تكون مظلومة وصاحب المنشور أخطأ في نقل الواقعة؟ لا يفكر أصحاب التعليقات المحفوظة مسبقًا في كل هذه الأمور، لأنهم بالأساس لا يفكرون، هم أراحوا أنفسهم ووضعوا تفسيرات مسبقة لكل حدث، وباتوا يسيحون على صفحات الناس والصحف على التايم لاين تاركين أسطواناتهم المشروخة في كل الزوايا.

تجاهُل تلك التعليقات مهمة سهلة للمحترفين، أي هؤلاء الذين فهموا كيف تسير الأمور على الموقع الأزرق، لكن في زمن البلوك، ملايين يحتاجون إلى الوعي الكافي حتى لا يستهلكوا الأسطوانات المشروخة ثم يصبحنا بعدها من المنتجين، خصوصًا الذين تناسب تلك الأسطوانات هواهم وتبعدهم عن توجيه الأصابع للمتهم الحقيقي، الذي هو في حالتنا هذه مثلًا سيظَلّ مجهولًا حتى يفصح صاحب المنشور الأصلي عن التفاصيل. أحدُهم فشل في دخول نفس القناة ربما بسبب قدراته وربما بسبب عدم وجود واسطة، سيأخذ التعليق المكرر باعتباره دليلَ براءته من الفشل، سيبحث عن كلّ مَن حكى لهم تجربته مسبقًا ويرسل لهم نسخة من التعليق مع عبارة «شوفوا أهو مش أنا بس اللي بقول الشغل هناك بالوسايط»، هكذا ينام مرتاح الضمير بأن الخطأ بعيد عنه، وهكذا بات كثيرون على مواقع التواصل سعداء بالاستقرار على تفسيرات محددة لكل الظواهر وإخراجها في

شكل تعليقات ومنشورات ونقاشات دون الحاجة للتفكير والبحث عن الأسباب أو للتجاهل إذا كانت التفاصيل مبهمة.

ظاهرة «الأسطوانات المشروخة» يمكن رصدها بسهولة عبر التايم لاين، في صفحات الكرة ستجد الملايين من مشجعي كل فريق يرددون نفس الكلام، في صفحات الفن ستجد كاره النجم يعلق بالسلب دون أن يتفرج، وستجد المحب يفعل الأمر نفسه أيضا قبل أن يشاهد، ستجد المستاء من النظام السياسي ينفي جدوى أي مشروع حتى لو كان كل الأرقام تؤيده، وستجد المولع بالنظام يهاجم أي منتقد حتى لو نزلت الملائكة وقالت إن نقده هو الحق، باختصار: ساعدت السوشيال ميديا على تدعيم الشخصيات ذات البعد الواحد، غير المنفتحين على أفكار أو احتمالات أو تصورات مختلفة، وفي نفس الوقت يريدون الإدلاء بآرائهم في أي جدال دائر، فالصمت لغة الحكماء، والثرثرة هي أسهل ما تفعله الأسطوانة المشروخة، وهو تعبير قديم، أقدم من شرائط الكاسيت التي اندثرت نفسها قبل عشرين عاما، فقبل ظهور الكاسيت، كان جهاز الجرامافون هو باعث الموسيقى الأول في البيوت، وتسجل الأغنيات على أسطوانات دائرية سوداء اللون، ستجد مشهدًا شهيرًا عنها مثلًا في فيلم «الوسادة الخالية» لعبد الحليم حافظ، وفي حال شرخت الأسطوانة فإنها تفسد على الفور ولو وضعتها في الجرامافون فلن تكتمل الأغنية بل ستظل تعيد المقطع الذي يسبق الشرخ فقط، فأصبح كل من يعيد الكلام كما هو دون تغيير يوصف بأنه مثل الأسطوانة المشروخة، سواء كانت الإعادة في

أحاديثه للناس أو في تعليقاته على منشورات الآخرين.

القائمة الرمادية

(السوداء سابقا)



لم يسألني أحدٌ ما هو أكبر خطأ وقعت فيه أثناء طوفان يناير ٢٠١١، الطوفان الذي اجتاحنا إنسانيًّا ومهنيًّا وعلى كافة المستويات، لم يسألني أحد فقررت أن أسأل نفسي وأجيب على نفسي وأعرض عليكم الإجابة لنتناقش فيها بعد نحو ١٠ سنوات على خروج المصريين ضدَّ نظام حسني مبارك، الخطأ الأكبر كان المشاركة والدعم لما عرف في ذلك الوقت بالقوائم السوداء، أي تجميع أسماء الذين عادوا الثورة وميدان التحرير، وأطلقوا ضدهم الشائعات أو حتى أعلنوا رفضَهم العنيف لما يجري دونِ تجريح أو نشرٍ للأكاذيب، تكوَّنَت القوائم وأثَّرت سلبًا بالفعل على مَن دخلوا فيها، مَن وضعوها وأنا منهم شعروا وقتها بالسعادة والرضا، لأننا عاقبنا من آذى أشخاصًا ونشطاء

وأفكارًا خلعنا عليهم ثوب القداسة، من بينهم طبعًا مَن كان يستحق الإقصاء حتى يتقي الناس شر اتهاماته وأكاذيبه فيما هو آتٍ، لكن من بين مَن شاركوا في الثورة من لم يكن فوق مستوى الشبهات، غير أنه بعد انقشاع الغبار وتراجع العاطفة لصالح العقل، بدأت الصورة تختلف، وتأكدت مرة أخرى أننا كبشر وليس فقط كصحفيين نخدع أنفسنا كلما أصدرنا أحكامًا قاطعة ضد أشخاص أو أفكار أو سياسات، وضعنا هذا وذاك في القائمة السوداء ثم تجد نفسك كصحفي، بعد عدة شهور، مُطالَب بحوار أو خبر عن مصدر كتبت اسمه بيدك في القائمة السوداء، تشعر وأنت ذاهب إليه إما بكونك شخصية متناقضة وتطبِّق شعار «مطرح ما ترسى دق لها»، أو بأنه سيستقبلك ساخرًا لأنك ذهبت إليه مضطراً بعدما ظننت لعدة أسابيع أنه لن يعود مرة أخرى، على نفس النسق مواطن اعتبر هذا الإعلامي أو ذاك السياسي قد انتهى وأنه لن يخرج من سواد القائمة أبدًا، لكن بعد سنة أو أكثر يجده يناقش ملفًّا يهم هذا المواطن، وقد يكون الوحيد الذي ناقشَهُ بموضوعية، ثم تنقلب الآية تمامًا ويدخل ثوار يناير أنفسهم القائمة السوداء، لتكتشف بعدما تُراجِع مواقفك أنه لا يوجد قوائم سوداء ولا بيضاء، إنما هي رمادية.. هناك من يدخل ويخرج منها سليمًا، وهناك من يظن نفسه بعيدًا ثم يدخلها دونَ قصدٍ، لا شيء يستمر على حاله للأبد، فلا تجعل مواقفك المُعلَنة تحولك لشخص متناقض بينما أن بالأساس تدافع عن مبدأ.

مهلًا.. هذه ليست دعوة للتلون ولا للمناورة، لا أدعوك لأن

تضحك في وجه من يستحق دخول القائمة السوداء، وتعارض من يدفع به إليها، فقط أنصحك بأن تجعل قوائمك السوداء، في الحياة، في الصداقة، في الحب، في الشغل، سرية، احتفظ بها بينك وبين نفسك، لا تعلنها حتى لا تضطر لتفسير تغيُّر موقفك كلما تغيرت مجريات الأمور، هذا الشخص الذي آذاك مباشرة أو دون عمد، هذا السياسي الذي تاجر بأوجاع الناس، هذا الفنان الذي سخر من مطالبهم واتهمهم بالجهل، ضَعْهم في قائمة سوداء داخل ذاكرتك، احتفظ بهم لنفسك، لا توقع على قوائم وضعها آخرون، فالإنسان صندوق مغلق ومن تصدر عنه أفعال وتصرفات مشينة قد تجده لاحقًا يدعم مبادرة إنسانية بصدق، لعلَّه يعوض ما اقترفه من وجهة نظرك، أو لعلَّه فعلَ ما اعتبرته أنتَ مشينًا وهو يظن أنه على حق، المواقف القاطعة غباء مُطلَق، والقوائم السوداء وهمٌ أحذِّركم أن تقعوا فيه مستقبلًا.. كما فعلت أنا في الماضي.

فتافيت المبادئ



بالتأكيد لم يتوقع أول مَن قال إن «المبادئ لا تتجزأ» أن التجزئة ستحدث على مواقع التواصل الاجتماعي كل دقيقة، وستصل الأمور إلى مرحلة تفتيت المبدأ وليس فقط تقسيمه إلى أجزاء، بل سينحدر الحال لدرجة الخلاف حول «المبدأ» نفسه هل هو «مبدأ» فعلًا أم من المبادئ ألا نعتبره «مبدأ"».

لن أتلاعب طويلا بمفردة «مبدأ» وسأدخل إلى مثال واحد لأنه كثير التكرار على ساحات الفيس بوك وباقي مواقع التواصل الاجتماعي، في أي قضية يكون المتهم فيها سيدة، سواء كانت مذنبة أو بريئة كما يُثبَت لاحقًا ستجد المئات من التعليقات والمنشورات التي تهاجم الصحافة لأنهم نشروا تفاصيل القضية وأكدوا الاتهامات في تغطيتهم دون تحقيق، حسنًا، الصحافة مخطئة بالطبع، وزمان في

زمن المطبوع، قبل أن يدخل الملايين إلى الإنترنت كانت الصحف تنشر الحوادث المهمة والساخنة بأقل تفاصيل وبدون أسماء، وكنا نرى المتهم وقد تظللت عيناه بشريطة سوداء حتى لا يعرفه أحد، لكن في زمن بات فيه المتهم يصوّر جريمته أحيانًا ويعترف ويتباهى بها، وصفحة الضحية تصبح متاحة للجميع بصورِها وتفاصيلها بل باتت صفحات المتهم والضحية من وسائل التحقق التي تلجأ لها المباحث، هل منطقي أن تمتنع الصحافة عن التعامل بالتفاصيل؟ منطقي طبعًا لأن المبدأ لا يتجزأ، والمطلوب دائمًا أن تستمر حساسية الصياغة ولا يستبق الصحفي قرار القاضي، خصوصًا مع استحالة حذف كل الروابط التي تنشر التفاصيل عكس أيام المطبوع، كانت الصحف تذهب إلى الأرشيف، والاطلاع عليها للناس العاديين أمرٌ شِبهُ مستحيل إلا لمن يحتفظ بنسخة في بيته، لهذا كان يقال على كلام الصحف بهدف التقليل من تأثيره أنه «كلام جرايد» والجريدة كانت سلعة تاريخ صلاحيتها ٢٤ ساعة، طبعًا كان للأرشيف قوته لكننا نتكلم هنا عن الحوادث والبلاغات وغير ذلك من الأمور اليومية، الآن في زمن البلوك تنتهي القضية بالإدانة أو البراءة لكن تبقى التفاصيل بأخطائها وافتراءاتها محفوظة في سيرفرات جوجل واستعادتها يحتاج فقط إلى كتابة عدة أحرف في خانة البحث، حسنًا على الصحافة إذًا ألا تدعي أن الالتزام غير واجب في زمن السوشيال ميديا، فليهنأ أصحاب هذا المبدأ بانتصارهم على صاحبة الجلالة التي خلع مارك زوكربيرج تاجها دون تعمُّد عندما أسس الفيس بوك

قبل ١٧ عامًا، لكن نفس هؤلاء، وأقسم على ما أقول هم أول من ينشر صور واسم ومحل سكن وربما مقاس حذاء المتهم، لو أنه ابن رجل أعمال دهس ضحية بريئة بسيارته، هنا يتم اتهام الصحافة سريعًا بأنها تبيض سمعة الرجل وتمنع انتشار الخبر، قد يحدث هذا بالطبع، لكن نحن نتكلم في المبدأ قبل تفتيته، القاعدة تقول: لا ننشر تفاصيل عن أي متهم حتى يدان رسميًا، فلماذا مسموح بنشر صور ابن رجل الأعمال وهو يسلم نفسه للشرطة مثلًا؟! وغير مسموح بنشر تفاصيل بلاغ يقول فيه رجل أن زوجته تمارس الفجور؟ المبدأ واحد، لكنّ الجالسين خلف صفحاتهم يقيّمون الموقف حسب المتهم، هل هو من جنسنا، هل يبدو مظلومًا، هل إدانته قد تفسد أفكارًا نؤمن بها وندافع عنها، إذًا على الصحافة ألا تنشر عنه إلا بعد الإدانة، أما لو المتهم من فئة أخرى، نحن ضدها، نرفضها، فلن نسمح لشخص واحد أن يكتب تعليقًا قصيرًا يقول فيه «فلننتظر التحقيقات»، لا أريد في كلّ فصول الكتّاب أن أكرر عبارة مدّ خطًّا وطبّق ما سبق على مواقف أخرى، لكن فقط أريد التنويه أننا في هذا الفصل لا أتكلم في قضية مهنية، فالصحافة خسرت نصف سمعتها بسبب ما فعله الصحفيون في زمن البلوك، لكنني أتكلم عن قضية إنسانية، عن بشر يعيشون بيننا، بعدة شخصيات في روح واحدة، آراؤهم تختلف في الأشخاص والأفكار والقضايا حسب الظروف، يكتبون على حساباتهم أن أول ما يؤمنون به أن المبادئ لا تتجزأ بينما هم يفتتونها كلَّ يومٍ حسب اتجاه الريح، الاتساق مع النفس نعمة لا يعرفها من جرفته تيارات الموقع

الأزرق.

يا عزيزي

كلنا كومبارس



كنت سعيدًا بكتابة فيتشر يتناول مشوار الفنان الراحل طلعت زكريا منذ البداية حتى الفترة التي سطع فيها نجمه كممثل كوميدي مساعد للبطل في العديد من الأفلام عامي ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦، عندما حصل على ما هو أقرب للبطولة المطلقة وإن كانت بالشراكة مع أخريات، كنت سعيدًا لأننا في مهنة الصحافة نكتب عادة ما يطلبه الجمهور أو ما يعرف حاليًا بالتريند، أيًّا كان موقفنا من بطل الخبر، لكن أسماء بعينها نكتب عنها بحب نتيجة ارتباط شخصي، فالصحفي أو الإعلامي هو بالأساس مُشاهِد ومستمع ومتلقٍّ، على نفس المقياس بالتأكيد نكتب عن ذكرى نجوم عديدين رحلوا عن عالمنا، بل نستنسخ الموضوعات عامًا تلو الآخر، فما الذي سنكتبه في الذكرى العشرين لوفاة

مطرب شهير عن ما قد نكتبه في الذكرى الثلاثين طالما لم يجدّ جديد، لكن لو أنَّ حبًا يربطنا بالنجم الراحل فسيكون البحث مختلفًا عن أسلوب مغاير لإحياء الذكرى.

نعود لطلعت زكريا.. كان في هذه الفترة من الفنانين الذين تحب أن تكتب عنهم بعدما أصبح وجوده في أي مشهد من أي فيلم مناسبة مضمونة للضحك، كان هو أيضًا سعيدًا بالفيتشر وغاضبًا جدًّا من العنوان، لأنني استخدمت فيه كلمة «كومباس» حيث تتبعت مشواره من مشاهد الظهور الأولى حتى الأدوار المؤثرة، كان قد ظهر في مشهد وحيد بفيلم «ليلة القبض على بكيزة وزغلول» ولم يقُل إلا كلمة أو كلمتين، وهو ما عرفته أنا في الموضوع بكلمة «كومبارس» لكنه قال لي إن الكومبارس لا يتكلم ولا يكون له دور مؤثر في الدراما، وأنه ممثل منذ الانطلاق ولم يكن يومًا كومبارس.

لاحقًا عندما بدأت الكتابة عن جمعية ممثلي الأدوار الثانوية كان مؤسِّسها «عم إبراهيم عمران» وغيره من الأعضاء يغضبون بشدة من كلمة كومبارس، وكان صعبًا إقناعهم أننا في الصحافة نميل للاختصار والمصطلحات الدالة على المعنى بأقل الكلمات، وأنه من الصعب في كل خبر أن نكتب «عقد مجلس إدارة جمعية ممثلي الأدوار الثانوية اجتماعًا» بدلًا من «عقد مجلس إدارة جمعية الكومبارس اجتماعًا»، ثم ما هو تعريف الأدوار الثانوية، وهل هناك ممثل أدوار ثانوية وممثل أدوار إعدادية؟! (نكتة بايخة أنا آسف)، حتى في فيلم «سمير وشهير وبهير» غضبَ أحمد فهمي من وصف شيكو له بالكومبارس ولم

يغضب من تعبير «كلب السقا»، كان الموضوع نكتة طبعًا في الفيلم، لكن في الواقع يتعامل الجميع في الوسط الفني مع كلمة «الكومبارس» على أنها شتيمة تمامًا كما استخدمها شعبان حسين ضد هاني رمزي في «جواز بقراري جمهوري» عندما قال له «يا ابن الكـ.. ومبارس».

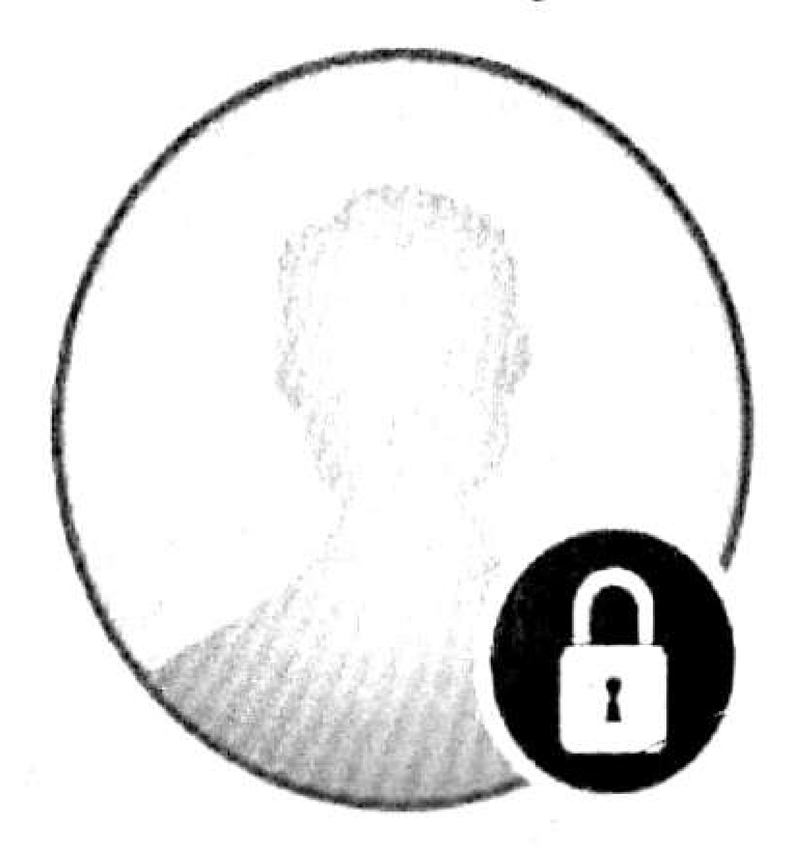
أما في الحياة، فدعني أؤكد أنه في أحيانٍ كثيرة يصبح من يؤدي كما الكومبارس أكثر أمانًا من البطل أو النجمٍ في مختلف المجالات، ونبدأ بالفن لأننا لم نغادره بعد، هل سمعت يومًا عن عملٍ فنيّ فشلَ جماهيريًا بسبب الكومبارس، أو أن كومبارسا أصيب بالاكتئاب لفشل فيلم شارك في بطولته، بل إن أجر الكومبارس - أو ممثل الأدوار الثانوية- لا يتغير أيًا كان مجرى الرياح في شباك التذاكر، ستقول لي لكن النجم يحصل على الملايين، وسأقول لك أتكلم هنا على القاعدة العامة، فالنجم قد يتوقف عن العمل تمامًا لو فشل فيلمه، لكن الكومبارس لا يتوقف، الضرائب لا تحصل على أي نسبة من أجر الكومبارس لكنها تفعل ذلك مع النجوم، لا أحد يحسدهم على أجرهم، ومع النجوم يفعلون.

في السياسة، عادة الذين يشاركون في التظاهرات كأفراد ولا يعرف أحدهم خسائرهم، أقل بكثير من الذين يقودون ويهتفون ويصعدون المنصات في حال فض المظاهرة وإنزال العقوبات على قادتها، في الكرة، المتفرج الذي لا يعرف أحدٌ اسمه يؤثر هو ومن معه في نجوم الملاعب حتى لو تقاضى النجم ١٠٠٠ ضعف أجر المتفرج في مجال عمله، حتى في المنزل دعني أعترف أننا كرجال نسعد بأمور نقوم

فيها بدور الكومبارس، تذاكر الأم للأطفال من أول السنة لآخرها فيما نكتفي نحن بالعبور من خلف الكاميرا، أقصد طاولة المذاكرة، وإلقاء كلمة تشجيع والتظاهر بالدعم والمؤازرة، تخيل لو طُلبَ منك أن تصبح البطل في هذه المهمة وتجلس على الطاولة كيف سيعتبرك ابنك نجمًا فاشلًا ويطالبك بالعودة إلى مكانك الأصلي.. كومبارس في المشهد فهذا أفضل لك.

باختصار: كلنا كومبارس معظم الأوقات، وهذا أمر مريح للغاية لكن من يجري وراء النجومية لا يراه ولا يضعه في اعتباره، لا يعني هذا الوقوف في المكان لكن مطلوب دائمًا أن نحسب الخسائر قبل المكاسب فحساب النجوم عسير، تخيل لو أن طلعت زكريا ظلَّ في منطقة الوسط ولم يصل للبطولة المنفردة في «طباخ الرئيس» ومنها إلى القصر الجمهوري ولقاء حسني مبارك الذي أوصله للواقعة الشهيرة خلال ثورة يناير، لم تكن الكلمة التي قالها على الثوار لتُحدِث هذا الأثر لولا نجوميته في ذلك الوقت، ولم تُعِده المقاطعة طبعًا إلى مرحلة الكومبارس لكنها لم تسمح له أبدًا بالعودة للصف الأول من جديد.

ارتكبوا أخطاء جديدة



كثيرٌ من الإيفيهات والقلشات التي نتداولها خصوصًا عبر السوشيال ميديا لها زاوية أخرى تجعل مناقشتها جديًّا أمرًا واجبًا، حتى لو تعجَّب من يعتبرها مجرد نكتة لا تستحق النقاش والتفلسف.

«دعونا ننسى أخطاء الماضي ونعمل أخطاء جديدة» قالها عمرو عبد الجليل في فيلم «كازبلانكا» لأمير كرارة وإياد نصار، إنتاج ٢٠١٩، غير أنه محق تمامًا، فهذا الذي يقول إنه يسعى لأن يكمل مشواره في الحياة بدون أخطاء، واهمٌ ويخدع نفسه كلَّ صباحٍ، وبعيدًا عن النشاطات غير المشروعة التي انغمس فيها عبد الجليل في «كازبلانكا»، فإن المقصود هنا بالأخطاء الجديدة هي تلك الناتجة عن مواقف لم يمر بها الإنسان من قبل ولا يوجد لديه عذر يجعله سواء كان مؤمنًا أم لا يقع في الجحر مرتين.

السيرُ في دروب الحياة بتحفظ يفقد الدنيا أسمى معانيها، مثل التعلُّم والتطوُّر والإحساس بأنك تفعل الجديد كل يوم حتى لو كان من بين ما تفعله ما يمكن وصفه بالأخطاء والعثرات.

البعض -بل الكثير حتى نكون أكثر دقة- يعتبر تكرار الأخطاء نقيصة بشرية، لكنها في واقع الحال دليلٌ على أننا بشر ولسنا أجهزة كمبيوتر يمكن توقُّع ردة فعلها والتعامل مع كل فعلٍ بناء على كتالوج مكتوب مسبقًا.

التنوع في الأخطاء والتطور في التعامل معها وعلاجها هو المُبتغَى، هذا مثلًا الذي يفشل في ارتباطه العاطفي الأول فيقرر أن يلجأ للزواج التقليدي يحرم نفسه من خبرات حياتية كثيرة لو أنه جرب مرات عدة أن يرتبط بعيدًا عن الشكل الكلاسيكي، كذلك الذي يلجأ للعمل الحكومي بحثًا عن الأمان هو شخصٌ أقنَعَ نفسَهُ بأن البُعدَ عن المخاطرة وتفادي ارتكاب الأخطاء قيمة يمكن أن يهدر حياته من أجلها، طبعًا لا أتحدث هنا عن رفض الوظيفة الحكومية في المطلق فلا قيامة لمجتمع دون موظفين، لكنني أتكلم عن منطق من يقبل الوظيفة، ويعيش تحت سقفها رافضًا القيام بأي خطوة جديدة ولو نفس النطاق، خوفًا من ارتكاب أخطاء.

الطفل الذي يخطئ يخشى التكرار خوفًا من العقاب، لكن الإنسان الناضج ربما عليه أن يجرب في كثير من الاتجاهات دون أن يخاف من الأخطاء، فقط عليه ألا يكررها لأن الأمر يتحول في هذه الحالة

إلا «بلادة» أو بالمفردة الشعبية «تغفيل».

في مجال العمل الصحفي مثلًا، يذهب البعض إلى صحف نطلق عليها تعبير «بير سلم» ويجرب ويفشل ويدرك أنه أخطأ لأنه عبر باب هذه الجريدة من البداية، لكن هناك من يعبر نفس الباب مرة أخرى ظنًّا منه أنه سيجد نتيجة مختلفة قبل أن يحكم على المهنة كلها بأنها لا تناسبه، فيما كان الأفضل أن يجرب في مجال جديد داخل نفس المهنة، حتى لو ثبتت عدم الجدية سيكون قد تعلَّم من ارتكابه خطَئين مختلفين وليس خطأ واحدًا تكرَّر مرتين.

التجربة هي السبيل الوحيد لأن تصبح حياة الإنسان أفضل، لو أنك تقرأ هذه الكلمات ولم تدخل الجامعة بعد، ستجد من سبقوك يحذرونك من الحب في مدرجات الكلية وأن ٩٩٪ من هذه القصص فاشلة، لكنك ستخطئ إن لم تجرب وتفشل بنفسك، فارقٌ كبيرٌ بين أن يحدثك أحدهم عن مرارة أو حلاوة طعم هذا المشروب أو ذلك، وأن تضعه على لسانك بنفسك، فقط احرص على ألا تذوق نفس الشراب المُر مرتين.

اللمبي السخيف



في الفيلم الشهير «الناظر» لعلاء ولي الدين، ذهبَ البطل لزميل المدرسة القديم المرفود بسبب «شقاوته» والذي تحوَّل إلى «بلطجي»، من أجل التدرب على حياة الشقاوة هربًا من سنين الملل التي عاشها رغمًا عنه حتى رحل الأب، بداية ظهور شخصية الزميل القديم كانت حفل زفافه، وهي أيضًا بداية ظهور شخصية «اللمبي» في السينما المصرية والتي اشتهر بها محمد سعد وظلت طوال عشرين عامًا بَركَته ولعنته في آن، خرج صلاح الدين عاشور من الزفاف ومعه اللمبي الذي ترك كلَّ شيءٍ وذهب في رحلة مع صديقه بصحبة ثالثهما «عاطف» ليتحول بعد ذلك إلى عبء على الثنائي ويذهب معهما في كل مكان ليفسد جهود الناظر لاستعادة السيطرة على المدرسة، وفي مكتب وكيل الوزارة يؤكد صلاح الدين تلك الحقيقة عندما يعرف اللمبي بأنه «جاي معانا قهر»، ولم يتراجع اللمبي إلا مرتين، الأولى

عندما رأى فتى أكثر بلطجة منه فترك الناظر يواجهه بمفرده، والثانية في المشهد الأخير عندما تصدَّت له «ميس انشراح» ورفضت أن يلسب عاطف باقة الزهور التي أحضرها لصديقه.

طبعًا خرج من كل ما سبق عشرات الضحكات والإيفيهات التي دخلت ذاكرة الجمهور، ولولاها ما تشجع سعد وقدَّم الشخصية في فيلم يحمل نفس الاسم، قبل أن يكررها في أفلام أخرى تراوح نجاحها ما بين الضعيف والكبير والمتوسط، بالتالي لا يمكن القول أن شخصية «اللمبي» في «الناظر» كانت سخيفة رغم اقتحامه حياة الآخرين، نخفة الدم غفرتْ ذلك، لكنَّ هناك من سار بنفس النهج على مواقع التواصل الاجتماعي في العقد الفائت، وفرض نفسه بسخافة على الآخرين لينتج عن ذلك ظاهرة العلاقات المتقطعة، أي يحدث تواصل ثم انقطاع ثم عودة فاترة وأحيانًا لا يعقب الانقطاع أي مستويات العودة.

"اللمبي» في الفيلم كان مطلوبًا لتحقيق هدف واحد، لكنه لم يدرك ذلك وفرض نفسه على الجميع، على الفيس بوك وتويتر، وتحديدًا في السنوات الثلاثة التي أعقبت ثورة ٢٥ يناير، عندما صنف الناس بعضهم البعض تصنيفًا سياسيًّا فحسب، لم يدركوا أن هناك مَن لن يدرك حقيقة التصنيف، وسيتعامل على أنه أصبح واحدًا من تلك المجموعات ويطالب بحقوقهم كما وفى هو بواجباته التي ربما لم يكن يريدها أحدُ، لكنه قدَّمَها عن طيب خاطر وهو يقدِّم فروض الولاء لمجموعات جديدة يريد أن ينضم إليها فقط لأنهم جميعًا أيَّدوا الثورة أو

عارضوها، وعلى نفس النهج لأنهم جميعًا يشجعون الأهلي أو يوالون الزمالك... وغير ذلك من تصنيفات تجمع في البداية عن غير هدى ثم تبدأ الفجوات في الظهور فتشتعل الخلافات، ويجد كلّ «لمبي» نفسه وحيدًا ومضطرًا للخناق حتى يدافع عن كرامته ويستعيد جزءًا من هيبته المسلوبة، وهما - الكرامة والهيبة- اللتان تخيلهما واخترعهما لنفسه ثم عاقب الآخرين على إهدارهما، ومعظم الجناة أبعَد ما يكون عن مسرح الجريمة.

الوصف السابق يحتاج إلى مثال كي تتضح الصورة، وليكن من سوق الميديا فهو أكثر مجالات العمل تأثرًا بالمتغيرات التي فرضتها مواقع التواصل الاجتماعي على الناس وبين الناس، فخلال نفس الفترة المذكورة أعلاه، زاد عدد المواقع الإلكترونية التي تحتاج لموادٍ، واختلط القارئ بالكاتب كما يختلط الحابل بالنابل في فوضى الحروب، حسنًا، لنا أصدقاء عرفناهم افتراضيًّا وربما تقابلنا على الأرض عدة مرات، يكتبون آراءهم في شكل «بوستات» ويطلبون الآن بحُكم الصداقة الافتراضية أن يصبحوا كتّاب مقالات، وأبواب الرأي في تلك المواقع خاوية، فلا توجد ميزانية لكُتّاب محترفين وإن وجدوا فعدَد المواقع أكبر من عدد الكتّاب، وبعد أول وثاني مقال يعتبر الصديق الافتراضي نفسه صحفيًّا وكاتبًا، ربما يغضب إذا لم تعلق على مقالاته، ربما يسأل لماذا لا أحصل على أجرٍ أنا أيضًا، وأحدهم كان يغضب جدًّا إذا تأخر نشر مقاله ويتعجب لماذا نشر مقال فلان سريعًا وتأخر موضوعي، وفلان هذا كاتب تعدَّى السبعين من عمره.

من الصعب هنا أن تلخص لصديقك الجديد كواليس المهنة التي تعبت حتى عرفتها سنوات طوال، ومن المستحيل عليه أن يستوعب أن نشر مائة مقال لا يجعلك ممارِسًا للمهنة ولا يعطيك شرعية من أي نوعٍ، ومع تراجع تلك المواقع واختفاء معظمهم وانتقاء المتبقي لمن يستحق النشر، زادت أزمة هؤلاء «اللمباوية» وبات يشعر وكأنه كاتب وصحفي سابق لم يحصل على فرصته، فلا يجد سوى التسخيف على المستمرين واعتبار بقائهم في الصورة مرتبط بأسباب كثيرة ليس من بينها أنه هو شخصيًّا لم يكن صالحًا للاستمرار.

على نفس الخط، أدّى انتشار الفعاليات الثقافية والفنية وحاجة القائمين عليها لزيادة عدد الحضور لخلق «لمباوية» على نفس النهج، من خلال دعوتهم للحضور والتفاعل، وبالتالي نقل المعرفة من الافتراضي للحقيقي، لكن دون أن يتوقع صاحب الدعوة أنه بمجرد تلبيتها يعتبر الضيف نفسه صاحب بيت، من حقِّه الاتصال بك في أي وقت، وطلب الخدمات، ووضع رأسه برأسك بالمعنى السلبي للتشبيه، وأن صورته معك ستظَلّ دليلًا أمام آخرين على أنكما أصدقاء، ومن المستحيل هنا أن تخبر الجميع بأنه مجرد «لمبي» تمامًا مثل زميل الدراسة القديم لصلاح الدين عاشور.

الـ No One

يضرب الجرس



من ألعاب الأطفال السخيفة شبه المنقرضة حاليًا، أن يضرب أحدهم جرس باب بيتك ثم يجري أو يختبئ بعيدًا عن مرمى رؤيتك، فإذا ما فتحت الباب أو نظرت من العين السحرية، وسألك مَن بالداخل ماذا وجدت بالخارج، فالإجابة المقرَّرة عادة هي «مفيش حد»، شبحٌ ما فعلها لكنه في كل الأحوال أثار قلقك ولو لدقيقة، قطع عنك مشاهدة فيلم أو مسلسل أو قراءة كتاب، أيقظك من النوم، أجبرك على الخروج من الحمَّام، قطع حبل أفكارك الشخصي، أو مكالمة هاتفية مع حبيب أو قريب، دفعك للتحرك لتعرف مَن هذا الذي يطرق الباب لكن «لا أحد» أو بالإنجليزي «No One ظهر أمامك».

«مفيش حد» هذه تحولت على مواقع التواصل الاجتماعي إلى «وجود شخص فعلًا لكن يصعب تعريفه»، أما ضرب الجرس فقد كان يحدث نادرًا في اللعبة السخيفة، لكنه يقع الآن كل ساعة وربما كل دقيقة على أي تايم لاين مزدحم بأشخاص تداخلوا فيها بينهم، فلم يعد الأمر قاصرًا على من قبلت صداقتهم فقط على فيس بوك وتويتر، وإنما على من يعلق عند هؤلاء الأصدقاء، يجاريهم أحيانًا ويعاندهم في أحيانٍ أخرى.

في اللعبة السخيفة كانت الدائرة محدودة، بل كان من السهل رصد المتطفل بمزيد من المراقبة وحصر مَن يمكن أن يضرب الجرس ويجري من أطفال الجيران أو عمال خدمات التوصيل وغيرهم، لكن في السوشيال ميديا تجد نفسك أمام معضلة أكبر تجعل هناك حاجة للوقوف أمام التعبير الذي كتبته قبل سطور «شخص موجود وظاهر فعلا لكن لا تعريف له» أنشأ حسابا على فيس بوك، له مهنة أو يدرس، لديه صور وفيديوهات، لكنه في الحقيقة «لا أحد» ليست له قيمة على الإطلاق، لكن التشبيك عبر تلك المواقع جعل له قيمة مزيفة يحتاج كشفها وإسقاطها إلى مواجهة اللعبة الشخصية بسلاح التجاهل.

أشرح أكثر في صفات تلك الفئة، ثم أتكلم عن الكشف والعلاج، هؤلاء الـ «لا أحد» ينتشرون من خلال تطبيق ما، جاء في كتالوج مواقع التواصل الاجتماعي ولم نقرأه جيدًا فور ظهورها، إذ يقومون بإضافة شخصيات معروفة ولها صفة على حساباتهم ويتفاعلون معهم،

ثم تدريجيًا يستخدمون عيب «التعود» الذي جعل البعض من كثرة متابعة التعليقات عند الأشخاص المعروفين يظن أن هؤلاء أيضًا يقفون على نفس الدرجة، فيكوِّن أبناء قبيلة الـ «لا أحد» تدريجيًا دوائر تخصهم هم، ويبدأون في استخدامها للتحول إلى مؤثرين أو على الأقل كسب مصالح ما، ربما أرى ذلك بوضوح في مجال الميديا، لكنه بالتأكيد موجود في مجالات أخرى، فمن كثرة التعليقات واللايكات والتداخل مع المعروفين يبدأ في طلب الانضمام رسميًا لأبناء المهنة، و٩٠٪ منهم وأنا مسؤول عن الإحصائية يخرج سريعًا من نفس الباب الذي يدخل منه بعد اكتشاف ضعف مستواه وقلة حيلته وانعدام قدرته على التطور، لكنه لا يخرج من كل شيء فيبقى ليعاند ويشاكس عبر منشورات الفيس بوك وتغريدات تويتر، ليحتاج الأمر إلى أن يجلس المتابع والتأمل في هدوءٍ أمام جهازه ويرجعِ بظهره للوراء ويسأل نفسهَ أولًا وربما آخرين في مرحلة أخرى، من هذا الشخص الآن، ما تعريفه، ماذا يفعل، ما قيمته حتى نحدِّد قيمة ما يكتب، وهل يستحق الالتفات لأنه هاجمَ كتّابًا أو مدح مسلسلًا، أو انتقد فيلمًا ورشَّح مسرحية؟ لو بحثنا لهذه الأسئلة عن إجابات بالتطبيق على عشرات ممن عرفناهم عبر السوشيال ميديا ونسينا أنهم «لا أحد» بسبب طول فترة التعود على رؤيتهم أمامنا يلهون ويصخبون على التايم لاين، سنجد أنهم لا يختلفون كثيرًا عن الذي يضرب الجرس وهو طفلٌ ويجرى قبل فتح الباب.

الأخير علاجه إما كشفه، أي أن يعرف أن صاحب البيت أدركَ

شخصيته وقادر على عقابه، أو تجاهله، تخيل أن الطفل يضرب الجرس عدة مرات ولا يجد مَن يهتم بأن يفتح ويسأل «مين بيخبط» لماذا سيكررها، لقد قتل صاحب المنزل متعته، نفس الشيء تخيَّل أن هؤلاء الـ «لا أحد» لم يجدوا مَن يشتبك مع آرائهم الشاذة وأفكارهم المنشورة فقط لفتًا للانتباه، وانحسر الجدل الذي أصلًا يكتبون من أجله لا لأي هدف آخر، التجاهل سيعيدهم تدريجيًّا إلى سيرتهم الأولى عندما دخلوا مواقع التواصل يتحسسون الطريق نحو علاقات وانتشار لا يستحقونه، التجاهل سيمنعهم من ضرب الجرس إلا على أبواب سكان جدد لا يعرفون الخدعة، وهؤلاء أيضًا سيأتي يوم ويكتشفون أن كل هذا الصداع صادر من «لا أحد».

ألا تكون

أحمد أبو كامل



لم أشاهد فيلم «شادر السمك» لأحمد زكي ونبيلة عبيد (يناير ١٩٨٦) إلا مرة واحدة تقريبًا، الشريط ليس من بين الأفلام كثيفة الإعادة لأحمد زكي رغم النجاح الكبير الذي حققه وقت عرضه، لكنَّ مشهد النهاية ظلَّ في ذاكرتي لفترة طويلة، أن يقرر خصومك أنه ليس هناك أسلوب للتفاهم معك سوى الخلاص منك، هكذا انتهى المعلم أحمد أبو كامل، الذي بدأ عاملًا بسيطًا في شادر السمك قبل أن يتوحش ويدهس الجميع، ويظن أنه قادر على الصعود فوق الأعناق عبر ثروته وصهره ونفوذه قبل أن ينتهي كل شيء في دقيقة، أغلق تجار السوق المتضررين من احتكاره دكاكينهم وهم بداخلها، ليقف وحده وسط الشادر متوهمًا أنه امتلكه بمفرده قبل أن

ينهمر الرصاص من قَتَلَة مأجورين عددهم خمسة.

شخصية أحمد أبو كامل ومن يشبهونها من الشخصيات المثيرة للدهشة بالنسبة لي دائمًا، هذا الذي يقرِّر مبكرًا أن يعادي الكل، ويظن أنه قادر على الانتصار وتخطي العقبات مهما كان ارتفاعها، لاعتماده على مصادر قوة يظن أن فعاليتها مستمرة طوال الوقت.

لا أتكلم هنا على الأشرار الفاسدين من مختلف الفئات والأنواع، فوجودُهم أمرٌ طبيعي، بالعكس فإن الشرير الذكي شخص يجب أن تعامله بحرص وتحترم ذكاءه، لأنه قادر على الوصول لأهدافه دون حتى أن يعلن نيته ذلك، بل قد يكتم احتفاله بالانتصار حتى لا يعيقه النصر عن تحقيق نجاحات تالية، لكن يلفتني دائمًا الشخص السيئ المتوهم أنه قادر على الاستمرار رغم كثرة أعدائه، كل قواعد العقل والأقوال المأثورة والحِكم المنقولة تؤكد على أهمية تقليل عدد الأعداء، وتحييد من ليسوا أصدقاء وأن تعرف متى نتفاوض ومتى نتحالف ومتى نتفادى حتى تضمن الانتصار عندما تُفرض عليك المعركة الحاسمة.

تخيَّل لو أن أحمد أبو كامل في الفيلم الشهير اختار منذ البداية أن يفرِّق حتى يسُد، فيكون لديه شركاء من داخل السوق يتصدون معهم للكتلة المناوئة، ربما لو فعل ذلك لتعددت أجزاء شادر السمك لأن الصراع سيطول، لكن أبو كامل وغيره من هذه الفئة يطبقون قاعدة واحدة؛ لا أحتاج أحد ولن أتراجع عن اتجاهي مهما حدث، فقط سأختار بعض الأشخاص وسأتكئ عليهم وسيكونون من خارج دائرة

التحالفات، وعند إطلاق النيران فإن أول ما سيدركه الماشي على خطى أبو كامل أنه اتكأ على «حيطة مايلة»، سينقذ أصحابها أنفسهم قبل أي شيء.

في زمن السوشيال ميديا، كثيرون مِن هذا النوع، هؤلاء بدأوا مشوارهم العملي كذلك، ولولا مواقع التواصل لظلت دوائر الأعداء ضيقة ومحدودة، بل قد يتعجب من يسمع أن هذا الشخص الذي يبدو ناجحًا وهادئًا مثيرا للمشاكل في محيط عمله، وقد يتعاطفون معه لأنهم لم يروا منه إلا كل خير، وهي العبارة المصرية التي قلما نسمعها حاليًا، فالسوشيال ميديا جعلت الكل يرى ويوثق ويدوِّن ثم ينتظر المشهد الأخير، وقوف أحمد أبو كامل بمفرده في ساحة التصويب.

أمثال هؤلاء ظلوا يثيرون دهشتي لعشر سنوات، لكنها دهشة تزول كلما حانت لحظة النهاية، يحولون صفحاتهم لساحات معارك شخصية، يكتبون كلَّ ما يدور في عقلهم الباطن على الملأ، يعيشون في مرحلة ولت بقيام ثورة يناير، تلك التي كان يقال فيها إنه يجب علينا الفصل بين بروفايل الشخص والشخص نفسه وهو أمرٌ بات مستحيلًا، بل تحوَّل حساب كلٍّ منَّا على السوشيال ميديا إلى قنبلة موقوتة يمكن أن تنفجر في وجهه دون سابق إنذار، خصوصًا إذا كان هو نفسه من يخزن البارود.

يكتب أنه يحب القهوة جدًّا ويحتقر محبي الشاي، يدخل أحد محبي الشاي ويناقشه، يتطور النقاش وينتهي بأسهل قرار؛ البلوك. يظن

هذا «الأحمق أبو كامل» أن الشخص الذي تم حظره قد اختفى من الوجود، بالفعل ربما تمر عدة سنوات دون أن يراه لأنه لا مجال مشترك، بل قد يستخدم سلطاته لمنع الشخص من المشاركة في فعاليات ينظمها، هكذا يتعامل مع «البشر» كأنهم فقاقيع هواء يمكن أن يخفيهم بنفخة من فمه، لكن ما لا يدركه أن «الغضب» لا يفنى ولا يستحدث من عدم، تتجمع فقاقيع الهواء وتتخزن في مكان ما حتى تصبح قادرة بشكة دبوس على أن تنطلق كعاصفة تقتلع «أبو كامل» من جذوره، هي معادلة بسيطة بالمناسبة، تخيل أنك تقوم أسبوعيًّا بحظر أحد مخالفيك على فيس بوك بعد إهانة معتقداته أو التسخيف من أفكاره والحط من شأنه، وتذهب للنوم منتصرًا لأن الفقاعة خرجت من نافذة غرفتك إلى الفضاء الفسيح، وربما تحتفل في نهاية العام بحظر خمسين شخصًا، لكن بعد خمس سنوات سيصل العدد إلى ٢٥٠، أحدهم قد يقرِّر تدشين حملة ضدك ليجد فورًا ٢٤٩ متطوعًا جاهزين للمشاركة وقد لا يكون كلهم منصفين، بل قد يكون بعضهم يستحقون البلوك فعلًا، غير أنه وقتَ إطلاق النيران لن يكون للموضوعية مجال.

اللافت دائمًا، أنه كما أحمد أبو كامل في الفيلم، فإن الاستجابة للنصح تكون شِبه منعدمة، وأن دائرة ما تتشكل حول الشخص الموصوف في هذا الفصل تمنعه من التراجع، تهلل الجوقة لكل ضربة يوجهها لأحدهم دون مراجعة، ويغض أعضاء الدائرة الطرف عندما يكون المضروب شخصًا يهمهم، يتظاهرون أنهم لم يروا شيئًا،

يقررون السكوت حتى لا يغضب أبو كامل، وعندما تنطلق الحرب الأخيرة يقاتلون معه لساعات، وعندما تشتد النيران ينسحبون واحداً تلو الآخر، متسائلين في دهشة مصطنعة... متى كوَّن المعلم كل هذه العداءات؟

اللافت أن أحمد زكي رحمه الله نفسه لم يحب الفيلم، وبحسب العديد من النقاد فإنه شعر بالضيق لأنه اعتذر عن فيلم «الحريف» أحد أهم أفلام عادل إمام لاحقًا، وقدَّم شخصية تاجر السمك بشكل مبالغ فيه، أي إنه حتى الممثل الذي قدَّم الشخصية شعر بالندم فهل يشعر به كل «أحمق أبو كامل»... أنا شخصياً أشك.

جريمة عدم قطع العيش



أستطيع أن أقول الآن، وبعد نحو ٢٥ عامًا من الخبرات العملية، أن أسوأ قاعدة يطبقها أي إنسان في أي بيئة عمل هي «حرام قطع العيش»، وأنه رغم اتهامنا للمجتمعات الغربية بالقسوة فيما يتعلق بتطبيق قواعد عمل صارمة، إلا أنه اتهام ليس في محله، ويخلط بين العدالة في التعامل مع الموظفين وقدراتهم وبين قوانين الرأسمالية التي يمكن أن تستغني عن المئات والآلاف في أي وقت حفاظًا على رأس صاحب رأس المال، الفرقُ كبيرٌ بين الجانبين، كما أنه كبير على مستوى مقاييس الحضارة والتقدُّم، فكلما استمر العنصر الجيد كلما ارتفعت احتمالات نجاح المجتمع ككل، والعكس صحيح.

الغريبُ أن أهل الغرب في هذه الحالة كأنهم يطبقون الحديث الشهير «إن الله يحب إذا عملَ أحدُكم عملًا أن يتقنه»، فيما نحن أتباع

النبي نفسه نلتمس لغير المتقن ٧٠ عذرًا فنتركه يستمر ويستقر، بل ربما ينشر فيروس عدم الكفاءة ليتضرر منه آخرون يلعنون في سرهم هذا الذي ترك الفيروس ينتشر مبكرًا، ضاربًا بقواعد المناعة الوظيفية عرض الحائط.

في ظني أننا في رحلة تقهقر المجتمعات الشرقية، اخترعنا مجموعة من القواعد والأمثلة الشعبية التي تبرِّر لنا نفسيًّا قراراتٍ لم نكن لنتخذها لو أن العقل وحده الذي يعمل، فيتحول الحنق والغضب للتخلص من عنصر غير كُفء في مكانٍ ما إلى حصول على ثواب مزيف لأننا تركناه «ياكل عيشا»، بل واضطررنا إلى تغيير دورة العمل بالكامل حتى لا نتأثر بانعدام كفاءته وبلادة أدائه، ونحن نظن أننا بهذا نحسن صنعنا رغم ارتكابنا عدة أخطاء لا خطأً واحدًا.

الأول أننا أهدرنا فرصة لشخص آخر كان يمكن أن يحل مكان العنصر غير الكُفء ويؤدي الواجبات بدقة ومهارة وضمير، الثاني أننا أعطينا المثل لباقي العناصر المتواجدة في الدائرة نفسها أنهم مهما اجتهدوا فهناك من يشاركهم نفس الدخل والمزايا، حتى لو كان بدرجة أقل بسبب وضعه على هامش دورة العمل لتفادي أخطائه وتصرفاته الحمقاء، والثالث أننا بذلك حرمنا الشخص غير الكفء من أن يطور نفسه عندما يضطر للبحث عن عمل آخر، وعندها يدرك أنه لن يستمر في أي مكان جديد بحجة «حرام تقطعوا عيشي».

يضاف إلى ما سبق أن تَركُ غير الكُفء ليحصل على راتب

ويشغل مكان غيره، بمثابة إهدار للمال الذي يحصل عليه، لهذا لا تجد هذه الجريمة تتكرر إلا في المصالح الحكومية، حيث المال لا يخص شخصًا بعينه.

أعرف في إحدى دوائر العمل رجلًا تعدَّى الخمسين بعدة سنوات، لا يفقه أي شيء في مهام وظيفته، دخلها أول مرة بواسطة من قريب كان صاحب نفوذ في بدايات انطلاق المشروع، الذي انتقلت ملكيته لآخرين وغادره صاحب النفوذ نفسه، لكن الرجل الخمسيني ما زال موجودًا. فشلت كل محاولات الإطاحة به خارج الدائرة لأنه ينجح كل مرة في العثور على مَن يتدخل له لإبعاد اسمه خارج قائمة التسريحات، شباب ورجال خرجوا توفيرًا للنفقات وبقي هو، لا يقوم بأي واجبات سوى الحضور في المواعيد الرسمية، ويحصل على كل الحقوق والمزايا مثل أي موظف مجتهد لو غاب ساعة لتأثَّر الإيقاع، فيما صاحبنا هذا ننسى أحيانًا أنه موجود، ولا نتذكره إلا في دعابات زملاء شباب يقولون عن يقين أنهم جميعًا سيغادرون ويبقى هو لما بعد الإحالة إلى المعاش.

هذا مجرد نموذج، غيره كثيرون وعملُنا الصحفي والإعلامي بالأخص في العقد الأخير انفتحت أبوابه لمحررين ومراسلين ومخرجين ومذيعين ليست لهم أي علاقة بالمجال من قريبٍ أو بعيدٍ، بعضهم لا يحتاج المال ودخل بالواسطة، ومعظمهم يدخل بحماسٍ في البداية مدعومًا من طرف ما، وبمجرد أن تكتشف الإدارة أنها وقعت في الفخ وتبدأ محاولات إصلاح الخطأ تدور الأسطوانة على الفور ومن

كل الجهات «حرام قطع العيش».

هذه السطور قد يظن القارئ العزيز أنها ضلت الطريق لكتاب يتكلم عن الفلسفة الشخصية لصاحبها، وأن مكانها بين غلافي كتاب عن التنمية البشرية أو تطوير الذات مهنيًّا، لكننا اتفقنا أن التفلسف مجاله واسع وصالح للامتداد في كل اتجاه.

إنك يا عزيزي الإنسان، عندما تحكم ضميرك وتصل لحقيقة أنك مسؤول عن تنظيف كل دائرة تعمل بها من المندسين غير الأكفاء، ستشعر براحة نفسية هائلة، لأن أحدًا لن يتهمك في المستقبل بأنك تخاذلت يومًا ما وتركت الباب مفتوحًا لمن لا يستحق.

منذ استقرت في قائمة قناعاتي أن تخليص المهنة التي أعمل بها من غير الأكفاء أو هؤلاء الذين لا يمتلكون القدرات الكافية على العطاء والتميز، أصبحت أكثر ارتياحًا عند اتخاذ قرار إبعاد أحدهم، أو على الأقل عدم تقديم يد العون تحت ضغوط من نوعية: «ساعدني، لا أجد عملًا، أنا شاطر لكنهم ظلموني»، فالحد فاصل وواضح بين العمل المهني والعمل الخيري، يمكن أن تساعد أيَّ شخص طالما أن هذه المساعدة لا تضر غيره، وأستطيع أن أتباهى الآن بأنني توقفت منذ عدة سنوات عن ارتكاب جريمة «عدم قطع العيش»، لكن هذا وبكل أسى لم ولن ينطبق على صاحبنا الرجل الخمسيني المشار له سابقًا، فأنا ومَن معي ندرك أنه كما دخل قبلنا واستمر، سنخرج قبله ويستمر هو.. لكن يكفينا دائمًا شرف المحاولة.

أصحاب الجيب المخروم



يحدث طبعًا أن تسقط النقود من جيب أحدهم لأسباب كثيرة جميعها مقبول ما عدا سببًا واحدًا، أن يكون الجيب نفسه مثقوبًا، لأنه في هذه الحالة وفي حال عدم ذهاب البنطلون أو القميص للترزي من أجل إصلاحه سيظل طريق النقود مفتوح من ملابس صاحبنا إلى قارعة الطريق، ومصيرها يكون إما الضياع التام فتدوس عليها السيارات والمارة، أو يلتقطها أحدُهم فينشرح صدره، فالبشر يسعدون جدًّا بالعثور على نقود ليس لها صاحب، كما يسعدون بالعثور على نقود نسوها في ملابس قديمة، البشر يسعدون عمومًا بأي خيرٍ يأتي بدون جهدٍ.

الأمر يصبح أكثر سوءًا عندما يتجاهل صاحب النقود أن الثقب أو الخرم موجود أصلًا، ويشكو من أنه لا يعرف أين تذهب أمواله، كما

يشكو من أن أحدهم ينفق مبلغًا من المال يبدو أنه لم يتعب من أجل الحصول عليه، بينما يمكن أن يكون الشاكي هو نفسه صاحب المبلغ، والمنفق عثر عليه على الأرض بدون أدنى مجهود.

النصيحة التي يمكن أن تكون مفيدة في هذه الحالة هو إقناع وربما إجبار صاحب الجيب المخروم بأنه بحاجة للذهاب إلى الترزي فورا أو تغيير ملابسه والتأكد من أن جديده لا يعاني من الثقوب.

من الصعب طبعًا أن يكون هذا المثل شائعًا، فالأموال عزيزة على صاحبها، ولن يترك عاقلٌ جيبَه مخرومًا للأبد، بل من يدرك أنه يعاني من ثقبٍ في جيبه الأيمن يقوم على الفور بنقل ما هو عزيز وغالٍ لجيبه الأيسر لحين سد الثغرة.

هذا عن العاقل في الحياة العادية، أما عبر المواقع الافتراضية فينتشر أنصار الجيب المخروم، لكن الثقب ينتقل هنا لعقولهم التي تنتج أفكارًا يدفعون بها إلى قارعة التايم لاين فتصبح متاحة للكثيرين، وواقع الحال يقول أن هناك من تمتلئ نفسه بالرضا لمجرد أنه يشارك الناس أفكاره أيًّا كانت قيمتها، ويعبِّر عن مكنون ذاته ورأيه في كل ما يجري، لا نتحدث هنا عن عقلانية واتزان تلك الآراء لكن عمَّن يجد الراحة في التعبير والتنازل عنها للغير وحسب، لا يطلب مقابلًا ولا يغضب إذا ما استولى آخرون على أفكارهم ونصائحهم، ولا ينزعج إذا لم يلتزم أحدٌ بهذه النصائح.

غيابُ بديهة أنه لا حدودَ لمواقع التواصل الاجتماعي، وأنه لا معنى

للاقتناع بأن حسابك يتابعه فقط المئات الذين قَبِلْتَ إضافتهم، جعلت البعض ينزعج من سرقة وتكرار أفكاره من جهة، ويتعجب لأن أفكاره ونصائحه وخلاصة خبراته لا يستفيد بها أحدٌ من جهة أخرى.

هؤلاء لا يختلفون كثيرًا عمَّن يضع مالًا في جيبه المخروم، ثم يندهش لأنه يقل ولا يزيد، وعندما يحتاجه لا يجده ولا يعرف أين ذهب.

على مواقع التواصل كثيرون من أنصار الجيب المخروم، الذين يلومون المجتمع لأنه لا يقدِّرهم ولا يحترم كلامهم ولا يقرأ سطورهم، مع أن المجتمع أو المعني بهذا الكلام لم يطلب مشورتهم أصلًا، لم يقل لهم أحد أنتم عباقرة لماذا لا تستغلون عبقريتكم في إرشادنا إلى الطريق السليم، بل أنصار الجيب المخروم يبدأون المشوار متطوعين، فينالون في البداية إشادات من المقربين فيستمرون، ويضعون على كاهلهم مهمة إصلاح الكون، والله لو كانت النية الخالصة هي الإصلاح، فلن تصدر عنهم لاحقًا طاقة سلبية نتيجة الإحباط بسبب عدم تنفيذ ما يوصون به، أو أنه تم اعتماد نصائح آخرين سواء كانوا قدَّموها عبر مواقع التواصل أو في الغرف المغلقة، ما يحدث أن هؤلاء، أصحاب العقول المثقوبة يرمون بكل أفكارهم مجانًا على مواقع التواصل ويظنون أنها ستجذب زبونها تدريجيًّا على حد قول البهظ بيه في فيلم «الكيف»، رغم أن مبدأ العرض والطلب يقول إن الثاني يجب أن يسبق الأول وإلا ظلَّ المعروض بلا طالب وبلا سعر، وكأنها سقطت من جيب صاحبها ليلتقطه كل عابر سبيل.

على مواقع التواصل الاجتماعي، نجد كثيرين حوّلوا صفحاتهم لفاترينة عرض آراء مجانية، يقدمون نصائح وإرشادات لجهات وأشخاص، يلخصون كتبًا وأفلامًا، يمدحون هذا ويذمون ذاك في إطار النقد المفترض أنه بنّاء ولوجه الله، يجمعون اقتباسات وصورًا ومقاطع فيديو إلى آخره، لو أنهم يفعلون ذلك للتشارُك ولقتل الوقت لما كان في الأمر أزمة، لكنهم أنفسهم من يشتكون لاحقًا بأنه لا أحدَ يسمعهم أو بأن نصائحهم عادت عليهم هم بالبلاء والامتحان، رغم أن فردًا واحدًا لم يطلبها، بل إنهم يتعجبون جدًّا عندما يغيبون لأسبوع أو أكثر وقليلون من يلاحظون الغياب، مع أن المؤشر هُنَا صادق للغاية، فلو أن ما تقدِّمه من أفكار مجانية يهم أحدًا ما صبر الناس على اختفائك.

ألخص القضية بمثِل آخر بعيدًا عن الجيب المخروم، لو أنَّك تسيرُ في الشارع وتسأل على عنوان ما، ستطلب من أحد المارة المساعدة وسيبدأ هو في الشرح، لكن تخيل لو أن أحدهم أوقفك وقال لك إلى أين تريد الذهاب سوف أدلك فأنا أعرف كل العناوين، كيف ستحكم عليه حتى لو فرضنا أنه مخلص النية؟

بروفايل سيدنا الخضر



من المفترض أن الإنسان يدخل مواقع التواصل الاجتماعي من أجل معرفة ما يحدث حوله، يحصل على أخبار، معلومات، يناقش، يصحّح للآخرين، ويعرف منهم أخطاءه، هذه الفرضية تسقط كلّ يوم أمام الاجتزاء الذي يسيطر على عقول معظم التائهين في بحور الفيس بوك وغيره من المنصات، اجتزاء يصبني بدهشة نادرًا ما تفارقني رغم تخلّصي من اندهاشاتٍ كثيرة بعد طُول إقامة في هذا العالم الافتراضي شديد القسوة.

تعالَ نَضْرب مثلًا من زاوية شديدة التكرار، وتدل في الوقت نفسه على فراغ عقول المتابعين الذين يريدون أن يجمعوا من الناس الأجزاء التي تناسبهم وينفون الباقي، وكأن قبول الآخر كاملًا، ضربٌ من ضروب المستحيل.

زاوية كرة القدم، أن تكتب ما يعكس تأييدك للأهلي أو الزمالك وبدون أي ألفاظ جارحة، لكنه في النهاية حماس مشجع قد يستفز بالتأكيد مشجع المنافس، لكن هل لدرجة أن يسبك أو يهينك ويتنمر عليك؟ خصوصًا إذا كان هذا التعليق واحدًا من ألف تكتبه كل شهر عن مختلف القضايا والأمور، فلا يفوته المصاب بعقدة الاجتزاء، ويدخل ليكيل لك الضربات بين حروف تعليقاته، فتجد نفسك مضطرًا لحظره، فعلتها كثيرًا وأنا أسأل نفسي هل سيشعر ذلك الشخص بالأسف لاحقًا عندما يجد أحدهم وقد شارك لي خبرًا مهمًّا أو معلومات مفيدة، لكنه لا يستطيع قراءتها لكونها محظورًا؟ هل سيقول يومها أنه خسر لأنه انفعل أم لن يتذكر أصلًا لماذا حظرته ولن يلتف إلى أن المادة اختفت بسبب البلوك، في رأيي وبعد اطلاع ممتدّ وموسَّع على عقول المبحرين في أمواج الفيس بوك فإنه لن يشعر بشيء، سيواصل التجديف إلى حيث لا اتجاه، وسيجد آخَر يكتب ما لا يرضيه في قضية فيكيل له السباب، ولن يهتم ما إذا كان هذا المشتوم مدرسًا أو مهندسًا أو طبيبًا يمكنه أن يفيده لاحقًا بكلمة أو معلومة أو استشارة سريعة، فما الذي جناه هذا المتجزئ من تلك الحماقة، سؤال بلا إجابة.

هذه مجرد زاوية من عشرات الزوايا، على المنوال نفسه، يرفض الكثيرون مجرَّد إشادة أحد الفاعلين بقرارٍ سياسيّ أو العكس انتقاد سلوك حكومي، يختار الجزء الذي لا يعجبه في الكلام وينصب المحاكمة ويصدر حكمَ بالإعدام على فكر الرجل بالكامل، بل أكاد

أجزم أن معظمهم لا يكمل قراءة المنشور محل الاتهام، ومن ثم لا يهتم بالنزول إلى التعليقات لعلّه يجد ردودًا أو توضيحًا على ما أزعجه، لا يفكر حتى في أن يكون كالكرام الذين يمرون ويتجاهلون وينتظرون من صاحب الرأي تراجعًا أو تفسيرًا فيما بعد، الكل يحمل بين أصابع يده قنابل معدة للانفجار، ويعتبرون زر الـenter هو الفتيل الذي يمكن نزعه بسهولة، لتنفجر القنبلة في وجه الضحية فقط، لأن جزءًا من كلامه لم يعجب المار الثقيل.

هل هي عادةٌ إنسانية، وقع فيها حتى الأنبياء.. ربما، لكن سيدنا موسى كان محظوظًا بصبر سيدنا الخضر في القصة الشهيرة التي جمعت بينهما، موسى هو الذي طلب أن يتبع الخضر ليعلمه مما لديه رشدًا، والخضر عرف منذ البداية أنه لن يستطيع معه صبرًا.

يذكرني الحوار - مع الفارق طبعًا - بهؤلاء الذين يسعون لمتابعة المشاهير ثم يكيلون لهم لاتهامات فيما بعد، تخيلت لو أن لسيدنا الخضر حساب الآن على مواقع التواصل الاجتماعي، وكلما فعل شيئًا يعرف هدفه ولا يستطيع الكشف عنه في لحظتها، دخل له هؤلاء وأمطروه بالاتهامات، بل ربما منعوه من الاستمرار بقوة السوشيال ميديا الظالمة.

مرة أخرى لا أقارن، لا أنبياء على مواقع التواصل، لكن المفقود في قصة سيدنا الخضر وفي أحوالنا على السوشيال ميديا هو الصبر، الصبر الذي لم يعد يجعلنا نصبر على صاحب الرأي لنفهم، والذي

يجعلنا لا نقبل من أحدهم رأيًا واحدًا لا يعجبنا بين مئات الآراء التي صفقنا من أجلها، قبل أن نهيل عليه التراب لأننا لم نستطع معه صبراً.

الريفرنس



«مشكلة هؤلاء أنهم يريدون أن يصبحوا (ريفرنس) لكن إمكاناتهم لا تساعدهم فعمت الفوضى واختلط العالم بالجاهل، الحقيقي بالمزيف، الأصيل بالدخيل».

الاستهلال السابق يلخص حوارًا طويلًا مع فنان أعتز بصداقته، كنا نتكلم عن سبب تميز البعض وانعدام السبب نفسه عند آخرين، لكن هؤلاء الآخرين يبذلون مجهودات تثير الرثاء للحصول على التقدير ذاته، حتى خرج هو بمصطلح «الريفرنس» ليساعدني على تخيل ما يقصد، القصة باختصار في قدرتك على أن تنتج ما يمكن اعتباره «ريفرنس» لغيرك، يسير عليه ويقلده سواء منحك حقك المعنوي أو تجاهل ذلك، فالناس عادة تعلم من بدأ الفكرة أو الأسلوب ومن كرَّر وقلَّد ونسخ مئات الأشكال، يظل الأصل محفوظًا، على الأقل في ذهن المقلد،

ما يسبب لمعظمهم فجوة نفسية، فهو يتلقى التهاني ممن يعرفون ومن يجهلون أنه ليس صاحب الفكرة الأولى وسعادته ناقصة، لهذا تبذل الجهود دائمًا للقضاء على سيرة صاحب «الريفرنس» بهدف تبخيره في ذاكرة الجمهور، أو على الأقل التقليل مما قدمه، لكن سرعان ما ينعدل الميزان فالمقلدون عادة نَفَسهم قصير، وإذا توقف «الريفرنس» عن الإبداع سيتوقف المقلدون عن الحركة.

والريفرنس كلمة إنجليزية كما هو واضح، مرادفها بالعربية المَرجِع وكذلك الدليل، السند، الإشارة، وفي المهن المرتبطة بالفن والإبداع أسطوات كانوا الريفرنس لكل تجديد حدث في تلك المهنة، حيث يبدأ الرائد في وضع القواعد الأساسية ثم يأتي المجددون ويضيف كلٌّ منهم لمساته التي تصبح «ريفرنس» لمن يأتون بعدهم في نفس التخصص، وكلما نجح أحدهم في إضافة مختلفة يتحول هو نفسه إلى «ريفرنس» لمن بعده وهكذا تتطور الفنون، بل قل تسير الحضارة إلى الأمام.

على الفيس بوك، كالعادة يظن الكثيرون أن الكل يقف على مسافة واحدة، وإن ما يفعله البعض يمكن تكراره للحصول على نفس النتيجة، فبدأت الفوضى، لم يركّز المقلدون في البحث عن مجالات يبرعون فيها فيكونون هم «الريفرنس» بل الأسهل سرقة ما يقدّمه المتميزون من «مراجع»، بالتالي لن تعرف أبدًا مَن الذي بدأ موضة سرقة «البوستات» على سبيل المثال، ثم أضاف عليها كلمة «منقول» عندما شعر بالحرج، ولماذا لم يتم الموضوع منذ البداية بنسبة المنشور لصاحبه،

بل باتت الحجة عند الوقوع متلبسًا بأنه أخذ الكلمات من طرف ثالث لا من مالكها الحقيقي فتقيد السرقة ضد «مجاهيل» وإثبات الجريمة مستحيل.

أتكلم هنا فقط عن شكل واحد من أشكال الرغبة في التحول إلى «ريفرنس» وإن كان أكثرها شيوعًا، ضف إلى ما سبق الكثير من أشكال التقليد، أحدهم يجدد فيجمع صورًا لمقولات طريفة في منشور واحد، فيقوم الآخرون بنفس عملية الجمع مع اختلاف المضامين، أحدهم يتميز بأن يكتب آراءه في الأعمال الفنية في شكل سطور قصيرة لكنها كثيرة، فيبدأ الكل في التعليق على الأعمال الفنية بنفس الطريقة، أحدهم يصل إلى فكرة مميزة يحلل بها اتجاه معين، فيستحسن المقلد الفكرة ويعيد كتابتها لكن بأسلوبه الخاص، لماذا لم يكتبها قبل الأول، لأن قدراته الذهنية لم تسعفه، تمامًا كما يقلد مؤلف ما أسلوب كتابة لمؤلف اخر لكن في الموسم التالي لنجاح المسلسل الأول، أما على مستوى «التايم لاين» فالمقلد يبحث عن الاختلاف بتغيير اللغة مع أن اللغة في هذه الحالة هي مجرد إطار لا ينفي أن الأصل مسروق، تمامًا كما تسرق صورة فوتوغرافية في إطار معدني وتضعها أنت في إطار خشبي أو العكس، تغيير الإطار لا ينفي الجريمة، لكي تكون «ريفرنس» يجب أن تبحث عن ما هو مميز بداخلك وتعبِّر عنه وتقدمه للناس وإذا قلَّده أحدهم فأنت ناجح، وإذا لم يقربوه فيكفيك أنك لم تقلد غيرك وكنت لنفسك «مرجعًا».

ثرثرة على التايم لاين



لم أحدِّد موعدًا أفرغ فيه من هذا الكتاب، ولم أقرر عن ماذا سيكون الفصل الأخير، كذلك لم أكن أعلم أنني سأدرس النقد الفني والأدبي في الربع الأخير من ٢٠٢٠ فجاء الموضوع كله على عجل، لكن د. سامية حبيب، أستاذ النقد الأدبي والمسرحي بالمعهد طلبت منا أن نحلل نقرأ رواية «ثرثرة فوق النيل» من أجل التدرب على كتابة النقد الأدبي، بعيدًا طبعًا عمَّا جاء في الفيلم الشهير الذي كنت شاهدته عدة مرات وأحفظ الجملة الخالدة عن ظهر قلب «الفلاحة ماتت ولازم نسلم نفسنا»، وأحفظ المشهد الأخير الذي ترك فيه حارس العوامة الحبل لتتحرك جاعلا سكانها المساطيل يواجهون المجهول على صفحة نهر النيل، الرواية تختلف في أمور كثيرة، أو لنقل تناولها كعمل أدبي يجعل القراءة مختلفة، حتى أننا استغرقنا محاضرة كاملا لتحليل «عتبة النص»، وهو مصطلح نقدي

يعني تحليل عنوان الرواية أو المسرحية قبل قراءتها، أي توقع عن ماذا يدور النص ولماذا اختار الكاتب هذا العنوان قبل الاطلاع على الصفحة الأولى ثم مقاربة النص بعد الانتهاء منه بالعنوان، وهل كان الكاتب موفقا أم لا، بشرطة أن نحلل «عتبة النص» بعيدًا عن أي مؤثرات خارجية، أي بدون الاعتماد على أننا شاهدنا الفيلم أو قرأنا عن الرواية، تحديدًا كما قالت د.سامية نتخيل أننا في عام ١٩٦٦ زمن صدور الرواية وشاهدناها عند باعة الصحف، فماذا كنا سنقول عن العنوان، لماذا اختار محفوظ مفردة «ثرثرة» وليس «فضفضة» أو «رغي» أو «لغو» ولماذا فوق النيل وليس على النيل أو بجواره؟

لن أنقل لكم المحاضرة بالطبع، لكن أكتفي منها بأن الفارق الأساسي بين «ثرثرة» و«فضفضة» أن الثانية لا تتم إلا بين أناس تجمعهم صلة قرابة، كما أن الأولى تعني هي ومرادفاتها مثل لغو ورغي، الكلام الفارغ من المضمون، الذي لا هدف له سوى ملء الوقت، والذي قد ينساه أصحابُه في الصباح ويكرِّرون الثرثرة في أمورٍ أخرى عندما تبدأ ليلة جديدة، لأنهم يجتمعون من أجل المخدر والثرثرة هي شكلٌ مكمِّل لهذه الجلسة، ولو خيروا بين أن يجتمعوا ليتكلموا دون «حشيش» وبين أن يتناول كلٌّ منهم المخدر بمفرده لانحازوا طبعًا للخيار الثاني، أما «فوق النيل» فالتعبير المحفوظي هنا يعني «عدم الاستقرار»، فكلما جاء قادمٌ جديدٌ ومشى على السقالة التي تربط بين الشاطئ والعوامة اهتزت الأخيرة، فالثرثرة إذًا هي نتاج جلسات مجموعة من المخدرين المهتزين.

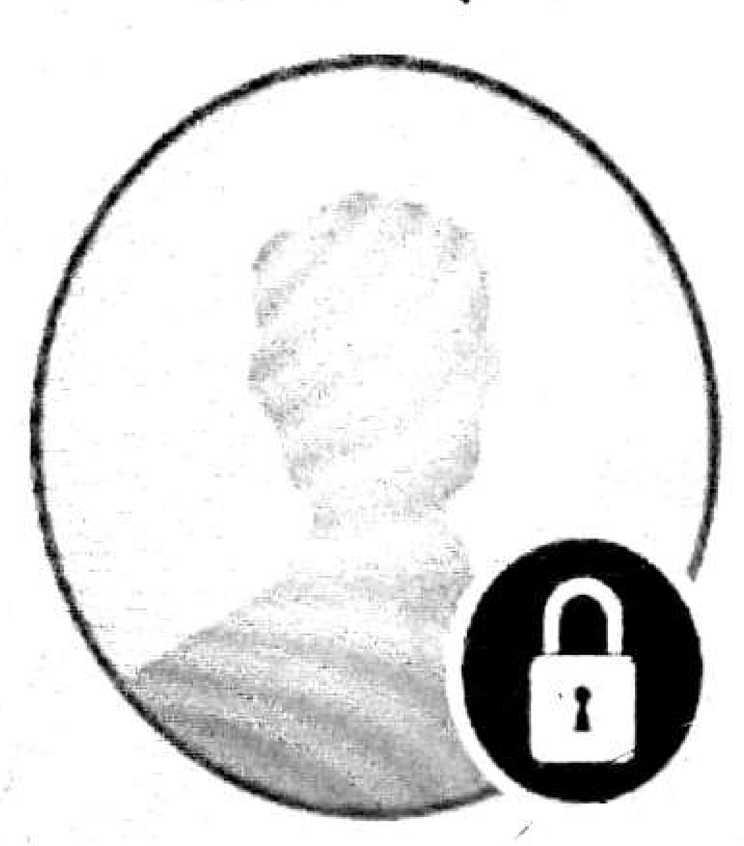
الناس يكلمون بعضهم البعض على التايم لاين سواء فيس بوك أو تويتر أو أي منصة أخرى، ومعظمهم لا يعرف أصل وفصل مَن تصادق معه إلكترونيا، أحدهم مستعد للدخول في مناظرات من خلال التعليقات على أخبار بعينها من منتصف الليل وحتى تسطع الشمس، هذا إذا دخل نورها حيث يقيم، والآخر لا يداخله الملل أبدًا إذا كرر نفس التعليق كل يوم على كل الأخبار، مثل التعليق الأشهر على الإطلاق الذي يعرفه مديرو صفحات الأخبار الفنية ويقول نصًّا «مش عارف كنت هكمل يومي إزاي من غير الخبر ده».

هل نعيش إذًا ما يمكن أن نسميه «ثرثرة على التايم لاين»، هل يمكن أن نتخيل منصات التواصل وكأنها كعوامة نجيب محفوظ المهتزة، الكل عالقٌ بها وليس أمامه إلا الثرثرة مع مَن لا يعرف، وكيف وصلت الأدمغة إلى هذه الحالة، هل الخلفيات سياسية اجتماعية كما كانت شخصيات رواية أديب نوبل، أم أن الأمر بات أعقد من ذلك، فأطباء ومهندسون وكُتَّاب وأساتذة جامعات متحققون للغاية لكن سلوكياتهم على مواقع التواصل قد لا تختلف كثيرا عن هؤلاء الباحثون عن ثرثرة لقتل الفراغ، وهل الحل هو الهروب من العوامة / التايم لاين؟ أم محاولة إفاقة مساطيل السوشيال ميديا لعلهم يقتنعون بأن تلك الثرثرة لن تفضي إلى شيء، كما أنها حتى بدون دخان أو مزاج عكس الرواية.

في النص حاولت الصحفية سمارة بهجت أن تستفز في المساطيل إنسانياتهم، بأن تطرح عليهم السؤال السهل شديد الصعوبة: لماذا

تجتمعون على المخدر وكلكم شخصيات محترمة؟ مما تهربون؟ في التايم لاين الصحافة نفسها استسلمت لتلك الثرثرة وباتت شريكة فيها، كما انتهت الرواية بتورط سمارة بهجت هي الأخرى في جريمة قتل، لكن الضحية في الرواية كان رجلًا عكس الفيلم، غير أنه في كل الأحوال هناك نفس ماتت ولم يسلم المساطيل أنفسهم، جريمتهم كانت مادية، أما جريمة ثرثاري التايم لاين فهي معنوية، يقتلون بألسنتهم الكثير من الضحايا كل يوم، لكنهم أبدًا لم يفكروا في الاستسلام، وحده من ينسحب ويعود لحياته الطبيعية يصل بمفرده إلى السلام النفسي في زمن البلوك.

ما بَعد الأخير



طوال فترة كتابة الأوراق السابقة كنت أدوِّن الكثير من الأفكار المستوحاة من مواقف ووقائع يومية من أجل تحليلها والنقاش حولها، بعضها كان يكتب نفسه بسرعة لأن الفكرة تأتيني متكاملة بالأمثلة، بعضها كنت أنتظر حتى أجد له مدخلًا يناسب طبيعة الكتاب، والبعض الأخير كنت أجدني ناسيًا لماذا دوَّنت الفكرة أصلًا وفي أي موقف، ومع الوصول للصفحات الأخيرة تبقت أفكار عديدة مخزنة داخل الملف الخاص بالكتاب، لم تعترض ولم تشكُ أبدًا من الانتظار الطويل حتى تتحول إلى نصوص، وبما أنه من الظلم تركها هكذا للأبد، اخترت أن أعبِّر عنها باختصار فيما يلي من سطور.

- «شايف نفسك فين بعد خمس سنين؟» الجملة الشهيرة التي تنتهي بها أي مقابلة توظيف والتي تعرضت لسخرية واسعة على منصات

التواصل لاعتقاد الساخرين أنها جملة عبثية بسبب حالة عدم الاستقرار السياسي والإجتماعي بعد ثورة ٢٠١١، غير أن هذا النوع من السخرية مضِرٌّ للغاية إذا تحول إلى قناعة، تجعل صاحبها يقرر التوقف عن التخطيط ليس لخمس سنواتٍ مُقبِلة بل ربما لخمسة أسابيع، هذا التنفير من التفكير في المستقبل ولو على سبيل إدانة الحاضر، قد يكون مطلوبًا أحيانًا لإيصال رسالة بأن الشباب كفروا بسنواتهم المقبلة، لكن على مستوى الفرد فإن من وضع هذا السؤال في مقابلات التوظيف كان ذكيًا واسع الأفق ليكشف للمديرين مدى إمكانية الاستفادة من الموظف المتقدم للمنصب الشاغر بعد سنوات بعيدة، نفس المبدأ مُهِمٌّ أن يطبقه كل إنسان على نفسه؛ أن يسأل باستمرار ماذا سيفعل بعد عام أو عامين وخمسة وعشرة، بل إن معظم الصدمات التي عاشها الكثيرون في الظروف الصعبة التي انتهى بها العقد الماضي جاءت بسببٍ عدم استعدادهم لأي تغيير مفاجئ قد يطال نظام حياتهم خصوصًا المهنية منها، فلم يبارحوا أماكنهم وكأنهم باقون فيها للأبد، ولم يفكروا أنه حتى بدون جائحة أو حرب أو مقاطعة سياسية فقد تجد في الأمور ما يجعل حياتهم المهنية ومستواهم المادي قيد الانهيار بين يوم وليلة، وأن مواجهة الأنقاض والخروج من تحتها بسلامة أمرٌ كان يجب الاستعداد له مبكرًا، إذا كانت لديهم إجابة السؤال بعدة سيناريوهات مقترحة، كيف يرى نفسه بعد خمس سنوات، حتى لا تتحول السخرية السهلة إلى مرارة صعبة الاحتمال.

• تجار النسويات، مستعدون للدفاع عن المرأة أيًّا كانت

الملابسات، والدفاع عن السيدات في مجتمعاتنا العربية واجب لا مراء في ذلك، لكن الأزمة في شخصية المدافع، في نواياه، في الصورة الكاملة لا الزاوية المحدودة التي يطلون من غيرها، وبالأساس إحدى أزمات التفاعل بين الناس عبر المنصات، التسرع في الحكم، فتجد نفسك تتابع هذه السيدة أو تلك الفتاة لأن مواقفها محترمة في قضية الدفاع عن المرأة ضد التحرش والاستغلال الوظيفي لها من قِبل المدير الرجل، هذه قضية حق لكن معظمهن للأسف يردن بها باطل، بالتالي بات لا بُدّ قبل كتابة أسماء المدافعات في قائمة الشرف، النظر أولًا لما يقدمنه من أفكار أخرى عبر نفس البروفايل، فالاجتزاء بات سلوكًا غير مفهوم وبدون مبرّر، أن نحكم على شخص بأنه جيد أو سيئ لمجرد أنه شاركنا موقفًا وجاورنا في حملة، الاتفاق لمرة لا يعني الاتفاق الأبدي، وللأسف تجار النسويات، أو المستغلات للقضايا النسوية يقفن على أجساد الضحايا من بني جنسهن، إما لتحسين صورتهن فقط على التايم لاين، أو لضمان تأييد مواقفهن والحصول على «برستيج» لن يحققنه عبر قضايا أخرى لأنهم للأسف غير متمكنات من أي قضية فيذهبن إلى الملعب السهل حيث لا منافسة ولا مواجهة ومن يشكك أو يفند الادعاءات محكوم عليه مبكرًا بأنه عدو للمرأة، بينما عدوها الأول هن المتاجرات بالقضية، اللواتي لو تفرغ لهن المتابع لاكتشف أنهن لا يشتبكن مع باقي القضايا الملحة، ولو عسس وراءهن في أماكن العمل سيجدهن الأقل إنتاجًا والأكثر أخطاء لكن كل هذا الغبار يفعلن به كما تفعل ربة البيت الكسولة، تضعه

تحت سجادة مكتوب عليها ندعم الناجيات.

• موجهة.. ضعف الطالب والمطلوب، الذي يكتبها بعد تفريغ شحنة الغضب يعلن للجميع أن درجة شجاعته لا تسمح بأن ينشر اسم المرسل إليه، والأخير لو كان واثقًا في نفسه ما اضطر الضعيف لينقده دون الاسم، إن علماء الاجتماع لو قرروا فعلًا تحليل ما نكتبه ونقوله عبر السوشيال ميديا، سيتوقفون بالتأكيد أمام التطور الحاصل لسلوك «التقليح» المصري الشهير، والذي كان مجرد إلقاء كلمات عابرة على مسمع من الشخص المقصود في بيئة العمل أو الجيرة، وفي الصحافة كانت تُستخدم الحروف الأولى أو الصفات الرئيسية ليتعرف عليها القارئ وليعرف المطلوب نفسه، كل ذلك في إطار محدود وله قواعد متعارف عليها لا تخرج عادة عن حدود اللياقة، تلقيح ينبِّه ولا يجرح، الآن سمحت المنصات بكلمات مدببة يكتبها عديم الشجاعة دون أي مسؤولية ويعرف أنها ستصل لصاحبها، وسيتأكد أنه المقصود، وأحيانًا يتعدد المقصودين وتبدأ التكهنات، صاحب الرسالة يوجهها لمن؟ لتتسع رقعة التراشق غير المباشر وتصيب ضحايا آخرين لا يتعمدهم الطالب ولم يؤذهم المطلوب، فأحيانًا يفسر المتفرجون الكلمات على هواهم ويلبسونها رداء الآخرين، وتتحول الظنون إلى يقين، أما قمة العبث فنصل إليها عندما يحذف المرسل كلماته، التي هي بالأساس غير معنونة، فلماذا يسحبها؟ هل وصلت وطلب المرسل إليه حذف الرسالة؟ أم لام الوسطاء صاحبها وأبلغوه بضررها حتى وإن لم يطلع عليها المقصود؟ وكيف يفعل صاحب الرسالة كل هذا ويظن

أن قدره لن يتأثر عند الناس، وأن «الفرجة» لم تعد موجَّهة للرسالة ومحتواها، وإنما يتفرجون على شخصه، يعلقون على إقدامه وإن كانت تنقصه الشجاعة ثم نكوصه عندما يحذفها ثم تحوله إذا غير كلماته ومدح المرسل إليها بعدما جنى ما يعتبره نصرًا من رسالته الموجَّهة.

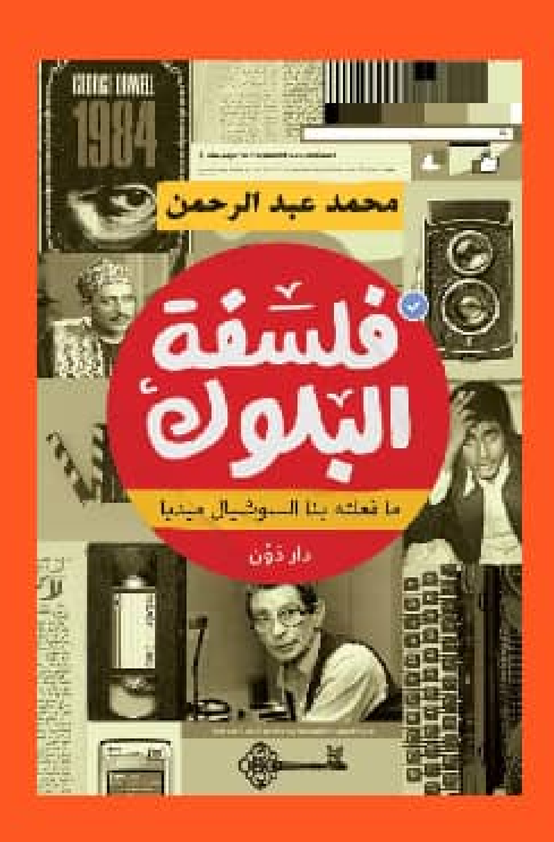
• كل بئر عميقة تبدأ بضربة فأس أولى.. هذه الجملة هي أوَّل ما كتبت من أفكار قبل نحو عامين حين شرعت في تحويل «هذا المشروع» إلى ورقٍ مسطورٍ، لكنني لم أحوِّلها لفصل مستقل طوال فترة التحضير، ربما لأنها تبدو عميقة أكثر من اللازم، فكنت أوجلها وأهتم بأفكار أخرى، أو لأن الله قدَّر أن تكون الخاتمة لا الفاتحة، ولدت الجملة بعد تأمُّل لحالة مطبوعة شهيرة عمرها عقود من السنين وكيف تدهورت في السنوات الأخيرة، وبحثًا عن تفسير لم أستطع فصل قرار رئاسي صدر بحق هذه المطبوعة تحديدًا في نهاية السبعينيات، وتساءلت ماذا لو لم يصدر القرار بهذا الشكل، هل كانت ستحافظ المطبوعة على مستواها المميز منذ انطلقت في العشرينيات أم تقلبات أخرى كانت ستدفع القائمين عليها للترنح شاءوا أم أبوا، علمًا بأن المجلة المقصودة شهدت طفرةً حتى بعد القرار الرئاسي المزلزل لكنها ظلَّت طفرةً مرتبطةً بأشخاص، وليس باستعادة النظام المؤسسي الذي يجعل أيَّ كيانٍ قادرًا على الاستمرار مهما تغيرت القيادات، بالتالي بمجرد خروج الشخص صاحب الطفرة يمكن بسهولة العودة لنقطة الصفر، لأن القرار الرئاسي الذي صدرَ قبل عقود فتح الباب لدخول من يمتلكون القدرة على إفساد أي منظومة حتى لو كانوا

أقلية، بالتالي عودتُ نفسي على عدم الوقوف عند أحوال جارية لتحليل نجاح مؤسسة أو شخص أو فشلهما، وإنما النظر خصوصًا في حال الفشل لضربات الفأس الأولى التي أنتجت البئر العميقة، بئر غير صالحة للري فمياهها منذ البداية مالحة.

دائمًا ما تكون هناك «بداية» لأي نهاية تتجسد أمامنا ونحن نندهش كيف وصلت الحال بهذا الكيان أو ذاك لما هي عليه الآن، اندهاش قد يزول في أقل من دقيقة إذا تذكرنا أن قرارًا ما صدر قبل فترة ليست بالقصيرة سمح بدخول شخصيات أقل من المستوى، أو عبث في تقاليد المكان وجعل استحلال الخطأ واستلذاذ التدني أمرًا لا يستحق الرفض والاستياء، لست نازيًا بالتالي أرفض فكرة نقاء الجنس الآري التي استغلها أودلف هتلر، لكن مهنيًا، علميًّا، فكريًّا، أي مؤسسة سيدخلها مَن هُم أقل من مستواها فهؤلاء الدخلاء قادرون على تعطيلها لعقود طويلة مقبلة، حتى لو كانوا في غير المناصب الرئيسية، وتأثيرهم العلني محدود ومعدوم، فإن تأثيرهم النفسي والمجتمعي والفني سيضرب في الجذور دون الحاجة لأن تلحظ صفوة الكيان ذلك، هذه الفكرة التي ارتبطت بـ «كل بئر عميقة تبدأ بضربة فأس أولى» وما يتبع ذلك بالمناداة بلعن صاحب الضربة وعدم ذِكر محاسنه حتى لو رحل، يمكن تطبيقها على قضايا عدة طرحها هذا الكتاب، فانغماس البعض في أعماق المنصات وعدم قدرته على الخروج منها بدأ أيضًا بخطوة واحدة كانت مستحسنة في البداية، التفاعل والانتشار ومعرفة أناس جدد، دون أن يسمح الضباب

الإلكتروني برؤية ما سيجري بعد قليل لنفس الشخص الذي يظن أنه يحمي خصوصيته بالحفاظ على «كلمة سر البروفايل»، بينما كل أسراره تصبح في نفس اللحظة متاحة للجميع، فيما ذاكرته ستنسى رغمًا عنه بيد من تلقَّى الضربة الأولى.

***


محمد عبد الرحمن
فلسفة البلوك
ما فعلته بنا السوشيال ميديا
دار دوّن